

الاسلام والنصرانية

مع

العلم والمدنية

بقلم حكيم الاسلام • الاستاذ الامام



﴿ الشيخ محمد عبده ﴾

(مفتي الديار المصرية قدس الله روحه)



بسم الله الرحمن الرحيم

لست بواجد في غرائب الدهر أغرب من قوم أنكروا الشمس في رابعة النهار وأخذوا يقيمون الدلائل وينصبون البراهين على عدم وجودها ويسفهون رأي من يقول إن العيان يكذبكم فى دعواكم وانى أراها بعيني بصري كما يراها كل من له عينان ليس فيهما من آفة تمنعهما عن الابصار ودرك المرئيات ويقولون له ان هذا الذي تراه خيال كاذب لا حقيقة له ومثال باطل لا أثر له خارج الاعيان.

ذلك مثل قوم أدهشهم ما شاهدوه وما يشاهدونه كل يوم من انتشار دين الاسلام بين مشارق الارض ومغاربها وتسابق الامم الى الدخول فيه من كل صوب وناحية وأعجزهم صد تياره الهائل والوقوف أمام سيله الجارف وأزعجهم ما

يرونه في أقسهم من الدلائل على أن هذا الدين الحنيف سيبطل كل دين ويذهب بكل نحلة فلا يبقى على وجه المسكونة دين سواه مادامت سرعته في الانتشار كالذي يشاهد منه على أن غيره من الأديان كل يوم فى اضمحلال وتلاش

هالهم ان رأوا عدد المسلمين يزداد في الهند الانكليزية والفرنساوية وغيرها من البلدان التي تحكمها يد تمقت الاسلام كل سنة آلافا مؤلفة اعتنقوه رغبة فيه ومحبة له واختياراً له على سائر الاديان ولم يتجاوز معتنقو الاديان الاخرى غيره بضعة آلاف من نحو مائة سنة هذا ودعاة تلك الاديان والمبشرون بها والمرغبون فيها بالمال وغيره والمجبرون عليها في بعض الاصقاع لا يألون جهداً في نشر الدعوة وترغيب الناس على أنه لا يوجد بين المسلمين من يقوم بمثل هذه الوظيفة وان وقع من أحد نصح أو إرشاد فذلك من باب الصدفة والاتفاق

هالهم ان رأوا أن الاسلام يزيد كل يوم أنصاراً وأعوانا يؤيدون حجته ويقوون برهانه ويشيدون بنيانه وان غيره من الاديان كل يوم يزيد ضعفاً وانحطاطاً وكلما مضت عليه ساعة

من يوم أو لحظة من ساعة خرج عليه خارج من أهله يهدم منه ما شيدوه ويفسد عليهم ما أصلحوه ويقاتل أهل الدين والمتمسكين به قتالا لا يقاتل مثله الخارجين عنه والمحادين له والزاهدين فيه والساخطين عليه

هالهم ان رأوا أن علماء الاسلام تزيد كل يوم ثقة أهل الاسلام فيهم ويزيدون رفعة وسموا في أعين أهل ملتهم على أن أئمة الاديان الاخرى التي تزاحم الدين الاسلامي هذا اليوم وتطمع أن تغلبه على مكانه يقتلون بجميع أنواع القتل ويعذبون بكل أنواع التعذيب وينكل بهم شر تنكيل ويشرد بهم من ناحية الى ناحية ومن صوب الى صوب لا تقلهم أرض ولا يظلهم جبل كأنهم ذئاب ضارية عادية لا يقربهم أحد ولا يدانيهم إنسان

ذلك بانهم اتخذوا دين الله لهواً ولعباً واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة وآثروا العاجل الحقير الفانى على الآجل الجليل الدائم فاستعبدوا الناس واتخذوهم خولا وخولوا لانفسهم من التصرف فى الاموال وغيرها مالا يخوله دين صحيح وشرع منزل

ولقد كانوا هكذا ولهم السيطرة وبيدهم السلطان ورقاب الناس خاضعة لهم عن عمى وجهل وسوء فطرة ورهبة من شرهم واستبدادهم وعسفهم فى أحكامهم

فلما خلت أيديهم من الحكم وانتقل السلطان عنهم الى غيرهم جوزوا بمثل فعلهم (وزارع الحنظل لايجني وردا) وعوقبوا بشر مما عاقبوا به

وأجدر بقوم زعموا افتراء على الله ان بيديهم أمور الدنيا والآخرة يرحم فيهما من يرحم بفضلهم واحسانهم ويعذب فيهما من يعذب بغضبهم وانتقامهم ان يسلبهم الله الملك فى الدنيا ويضيق عليهم مسالكها حتى اذا طلبوا رأس جبل يعيشون فيه طردوا عنه ولم يمكنوا منه

هال هذا الذي ذكرناه وغيره قوما جعلوا الدين تجارة من التجارات يربحون منه مايربحه التاجر من حانوته والصانع من صنعته فقاموا يصدون الناس عنه ويرمونه وأهله بالعظائم وينسبون له ماهو منه بريئي

ولو انك خلوت باحدهم فناشدته الله فيما يقول لم يكن جوابه الا السكوت والاعتراف بالمكابرة محافظة على ما وجد عليه اباه

والا فما الذي ينقمون من دين الفطرة الذي لا تقبل الفطر ولا المعقول دينا سواه

هل نقموا عليه تقرير توحيد الرب جل شأنه وتنزيهه عن الصاحبة والولد وتعاليه عن الحلول والاتحاد بشيء من مخلوقاته وشهادته للرسل بالطهارة والعفة والامانة ومجانبة الفسق والفجور على خلاف ما يقولون

فان كان هذا هو الذي ينقمونه من دين الاسلام وما اظنهم بواجدين شيئا سواه فالاسلام يعدُّ من محاسنه التى امتاز بها عن كل الاديان هذا الذى ينقم به اعداؤه عليه

من كان يظن قبل اليوم ان دين التوحيد دين الفطرة دين العلم يوجد له أناس معارضون يأخذون من علمه ويجعلون ما يأخذونه منه حجة عليه

ولقد كان الاسلام عزيز الجانب رفيع المقام يومَ إذْ كانت الدولة للمسلمين وراية الاسلام تخفق فوق رأس الموافق والمخالف فلما ذهبت عنه عزة السلطان ودال الغرب على الشرق انتبه النائم وقام القاعد ونطق الاخرس وكتب الامى ولم يبق من اعداء المسلمين أحد الاقام ضده يساعد على اطفاء نوره

وهدم معالمه ويقول ما يحط من كرامته ويضع من شأنه

ويعجبنا ان نرى كتاب المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها قد ادركوا سر هذه النهضة التي يقصد منها الحط من كرامة الاسلام بين الامم فنهضوا نهضة شريفة يحمدهم الله عليها وقابلوهم بالمثل فأعدوا لكل كتاب كتابا ولكل سؤال جوابا حتي لانت شدّتهم وانكسرت حدتهم وانقطع مجادلهم وخرس قائلهم (اللهم الا نفر يسيرهم كالانعام أو هم أضل سبيلا) ودال الاسلام فى حرب البرهان على كل الاديان

وهنالك قوم من أعداء الاسلام والحق أخذوا فى ايذاء الاسلام وأهله طريقا غير طريق المجاهرة والمكابرة ولذلك لم نر من تفطن لأولئك الاشرار من كتاب المسلمين فعارضهم بمثل عملهم حتى يقف بهم عند حدهم

خافوا صولة الاسلام وشدة بطشه وا كبروا ان يجاهروه بالمداوة فاخذوا ينشرون بين الناس من المؤلفات الساقطة والروايات الباردة مالا يخلو عن استهانة بالاسلام وغض من كرامة المسلمين

نذكر منهم صاحب مجلة الهلال هذا الذي يقتات من

فضلات المسلمين فانه يضمن رواياته الساقطة اشياء كثيرة تمس المسلمين وتغض منهم ولقد يتسع معه مجال المقال حتى ينال من كرامة اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

ولقد سمعت غير مرة قوما يتحدثون بأن من الواجب على كتاب المسلمين والقائمين بالذب عنه تأليف روايات تاريخية أو هزلية ينالون فيها من كرامة السيد المسيح والسيدة مريم وجماعة الحواريين حتى يرجع أولئك الاشرار عن غيهم فكنت أعارض في ذلك لان دين الاسلام دين الآداب والكمال الحقيق ولا يجوز دفع ذلك الشر بمثل هذا الشر فلأن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض لنكيلن لهم الصاع صاعين ولننقدنهم الدرهم درهمين

وليس العجب من انتشار أمثال هذه المؤلفات الساقطة بين عوام المسلمين مع انها تمس دينهم وكرامة نبيهم وأصحابه فان النفوس الجاهلة تميل الى قراءة كتب الاقاصيص والخرافات لان في استعدادها مايساعدها على فهمها وقد يكون في الكتاب مايؤلم القارئ الا انه لبساطة فكره لا يكاد يستشعر به انما العجب كل العجب من كتاب الاسلام وأدبائهم وأهل

الفضل فيهم كيف يسكتون عن تنبيه اغبياء المسلمين الى مافى هذه الكتب والروايات من الحط بكرامة المسلمين فضلا عن كونها مخلة بالآداب مفسدة للاخلاق

هذا الذى نستلفت اليه انظار المسلمين اليوم كما استلفت بعض افاضل المسلمين انظار الاسلام لما ينشأ من تربية اولاد المسلمين فى مدارس المسيحيين من المفاسد الدينية والدنيوية

كثير من المخالفين للاسلام يغلطون فى الانتقاد عليه يرون المسلمين على عمل من الاعمال أو عقيدة من العقائد لا يقبلها الفكر ولا يرتضيها العقل وقد تكون ليست من الاسلام فيظنونها منه فيوجهون سنان انتقادهم نحو نحر الاسلام والاسلام بريئي من ذلك الذي ينسب له ثم يُعترض به عليه

وكل هذا الغلط منشأه عدم الوقوف على حقيقة الدين الاسلامي والواقف عليه تماماً لا يجد فيه مطمنا بوجه من الوجوه ولا يستطيع أن ينسب له عيباً أو قصوراً

ونحن لا ننكر أنه قد دخل على المسلمين شئ كثير من البدع والاهواء المخالفة للاسلام وعلماء الاسلام فى كل عصر يؤلفون الكتب ويكتبون الرسائل فى بيان مادخل فى الدين

من البدع ويحذرون المسلمين منه وينبهونهم عليه

وهذا كتاب الاسلام والنصرانية الذى نضع له هـذه المقدمة تكلم فيه مؤلفه روّح الله روحه على النصرانية ومخالفة ماهيتها وحقيقتها لماهية العلم وحقيقته بخلاف دين الاسـلام فانه لم يقم إلا على أساس من العلم متين وانه لولا العلم لما كان الاسلام ولولا الاسـلام لما كان العلم ثم ذكر فى آخر كتابه طرفا كبيراً مما دخـل على المسلمين وليس هو من دينهم ولا مما أتاهم به نبيهم

فغير منصف من اعترض علي الاسلام ببعض المسلمين فالدين حجة على أهله وليس أهله حجة عليه والله يتولى توجيه وجوهنا نحو مافيه رضاه انه خير موفق ومعين

محمد احمد

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الاول في النصرانية

اضطهاد العلم والمدنية فى النصرانية

(قال الاستاذ الحكيم)

ذكرت الجامعة في الجزء الثامن من السنة الثالثة فى سياق الكلام على ماجرى لابن رشد ان للناس آراء في : هل الدين المسيحى أوسع صدراً في احتماله مجاورة العلم والفلسفة أو ان الدين الاسلامي هو الارحب خلقاً والاوسع حلماً من الدين المسيحى فى قبول أهل النظر فى الكون اذا نزلوا بداره ولاذوا بجواره ، وذكرت أن للقائلين بتسامح الدين المسيحي مع العلم وأهله دون الدين الاسلامي أن فولتير وديدرُو وروسو ورنان قالوا فيما يضاد الدين ماقالوا ولم يصابوا بضرر وابن رشد لم يقل شيئاً سوى انه قرر ماقال أرسطوا وأوضحه مع تصريحه بسلامة اعتقاده ومع ذلك أهين وبصق على وجهه وللقائلين بسعة حلم الاسلام ان الاسلام لم يحكم باحراق أحد لمجرد الزندقة عقيدته وكم حكمت المسيحية بذلك

ثم جعلت أهل الرأي الاول آخر من يتكلم وقالت :

« فيرد عليهم الأولون بقولهم : هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أم مع القريب والغريب معاً ؟ ثم ألا تذكرون الحروب والفتن التي قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية فأضعفت أمتهم ، وفرقت كلمتهم ، فهل يجوز أن تسموا محاربة شخص واحد وإعدامه (محاربة للانسانية) ولا تسموا كذلك محاربة شعب لشعب وأمة لأمة » اه

ثم قالت الجامعة إنها لا تفصل بين القوانين ، ولكنها فصلت فيها فصلين ، الأول في قولها : إنا نرى أن السلطة المدنية في الاسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معا وبناء على ذلك فان التسامح يكون فى هذه الطريقة أصعب منه فى الطريقة المسيحية فان الديانة المسيحية قد فصلت بين السلطتين فصلا بديعاً مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيق وذلك بكلمة واحدة « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وبناء على ذلك فان السلطة المدنية فى هذه الطريقة اذا تركت للسلطة الدينية مجالا للضغط على حرية الافراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلا عن

قتلهم وسقى الارض بدمائهم البريئة فانها تجني جناية هائلة على الانسانية وعلى ذلك لا يكون في هذه الطريقة من التسامح أكثر مما في تلك اذا بدا منها نقص ولو كان هذا النقص أخذ من نقص شقيقتها لانه لا نقص أعظم من نقص القادر على التمام » والفصل الثاني فى قولها : « ان العلم والفلسفة قد تمكنا الى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي ولذلك نما غرسها فى تربة أوربا وأينع وأثمر التمدن الحديث ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الاسلامي وفى ذلك دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا » اه

الجواب الاجمالي

وأنى أعجل فى الجواب بما يلاقى هذين الحكمين اجمالا أما الاول فان كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد من كل رأى بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة قال في سورة البقرة (لا إكراهَ فى الدين قد تبيَّنَ الرشدُ من الغيِّ فمَنْ يكفرْ بالطاغوتِ ويؤمنْ بالله فقد استمسكَ بالعروةِ الوثقى لا انفصامَ لها والله سميعٌ عليمٌ) وقال في سورة الكهف (وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفرْ)

وأما الثاني فأسأل الجامعة في جوابه : أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين ؟ وأين أولئك العلماء المضطهدون وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو وروسو وأمثالهم . وكيف ساغ لها أن تقول ماتقول وهي في أرض مصر ومصر بلاد اسلامية وحالها كما ترى ؟ فاذا أرادت شاهداً على حال المسيحية والعلم فلتمر بنظرها اليوم على أسبانيا ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم . يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين في مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وأميركان وهي مدارس دينية خصوصا مدارس الجزويت . فهل يمكنني أن أجد طالباً واحداً مسيحياً في مدرسة دينية اسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أي ملة ؟ لانجد الا قليلا منهم في مدارس الحكومة لعلمهم انها مدارس رسمية لم يقم بناء تعليمها على الدين . فهل سمع أن والداً اضطهد لانه بعث بولده الى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون ألا يعد هذا من تسامح الاسلام مع العلم اليوم [1]

---

(١) مثله اشتراك المسلمين في الجرائد المسيحية وعدم اشتراك النصاري في الجرائد الاسلامية الا نادراً

لولا أن موضوع كلامي محدود باعتبار التسامح بالنسبة الى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب الجامعة أنه يوجد في بلاده طائفتان تعد آحادهما بالالوف وتزعم كل منهما أن لها نسبة الى الاسلام وهي تعتقد بما لا ينطبق على أصل من أصوله حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ولا تقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة . وأجمع فقهاء الأمة على أنهما من قبيل المرتدين والزنادقة لا تؤكل ذبائح أفرادهما ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات وإنما اختلفوا في قبول توبة من تاب منهم ومن العلماء من قال لا تقبل توبته . وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ومضي عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والاسلام فى أوج القوة . دخلوا في حكم الاتراك وهم هم أيام كان ملك فرنسا يستنجد بملكم وكانت عساكرهم على أسوار فينا . كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم وأسروا عقيدة تناقض عقيدتهم قد ظهروا بأعمال تضاد أعمالهم وهم جيرانهم وتحت أيديهم وفي مكنتهم محوهم ومع ذلك عاشوا الى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين . وللمسلمين بينهم مصافون

وأوداء ، فهل عهد مثل ذلك عن المسيحيين ؟

غير ان موضع قولي محدود كما قلت فلا أخرج عنه وأراني نطقت فيه بكلمتي الجملة . ولكن لا يكفي لبيان ما عرضت به الجامعة فى قولها « هل يجب ان يكون التسامح مع القريب فقط أو مع القريب والغريب الخ» ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به فى حكمها الا تفصيل تعرض فيه حالة الدينين من العلم تحت نظر القارئ على وجه يمكن معه الحكم عن فهم ، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم

الجواب التفصيلي

أرى الجامعة جاءت فى كلامها باربعة أمور آتي بها على حسب ترتيب النسق فى تعبيرها . (الاول) ان المسلمين قد تسامحوا لاهل النظر منهم ولم يتسامحوا لمثلهم من أرباب الاديان الاخر (الثانى) ان من الطوائف الاسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب الاعتقادات الدينية (الثالث) ان طبيعة الدين الاسلامي تأبى التسامح مع العلم وطبيعة الدين المسيحي تيسر لاهله التسامح مع العلم (الرابع) ان ابتاع ثمر المدنية الحديثة انما تمتع به الاروبون ببركة التسامح الدينى المسيحى . فلا بد لي من الكلام على كل واحد من

هذه الامور الاربعة وابتدئ منها بالثاني لقلة الكلام عليه

نفي القتال بين المسلمين لاجل الاعتقاد

لم يسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين (الآخذين بعقيدة السلف) والاشاعرة مع الاختلاف العظيم بينهما ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين وأشاعرة — كما لم يسمع بان الفلاسفة الاسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها . نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج كما وقع من القرامطة وغيرهم وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد وانما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الامة . ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لاجل أن ينصروا عقيدة ولكن لاجل أن يغيروا شكل حكومة . وما كان من حرب بين الامويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة وهي بالسياسة أشبه بل هي أصل السياسة .

نعم وقعت حروب في الازمنة الاخيرة تشبه ان تكون لاجل العقيدة وهي ماوقع بين دولة ايران والحكومة العثمانية وبين الحكومة العثمانية والوهابيين ولكن يتسنى لباحث بأدني

نظر ان يعرف انها كانت حروبا سياسية ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف في العقيدة وبين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين

أما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة في بني العباس واضعفت الامة وفرقت الكلمة فهي حروب منشؤها طمع الحكام وفساد أهوائهم وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم . ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم وارتخاء حبل التمسك به في أيديهم . واكبر داء دخل على المسلمين في هممهم وعقولهم انما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم . أقول «الجهلة» وأريد أهل الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الاسلام ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم . ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم باحكامه لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في احدى اليدين وما قرر الاولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخري ذلك لآخرتهم وهذا لدنياهم وساروا يزاحمون الاوروبيين فيزحمونهم

مالنا وللحكام نعرض لهم؟ الذي عليّ ان أقول ولا أخشى منازعا : إنه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة

من العقائد أو على تركها على ان هذا الامر الذى جاءت به الجامعة والجأتنا الى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة لان الكلام في التسامح الديني مع العلم لا في تسامح عقيدة مع عقيدة أو دين مع دين والا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها ما يستغرق أجزاء الجامعة بقية هذه السنة اذا أوجزنا ما استطعناه هل أذكرها بما كان يقع في القسطنطينية من سفك الدماء بين الارثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين؟ هل أذكرها بحادثة برتلمي سنتهلير التي سفك فيها الكاثوليك دماء إخوانهم البروتستانت وأخذوهم في بيوتهم على غرة وقتلوهم نساء ورجالا وأطفالا ؟ بماذا اذكر الجامعة من أمثال هذه الوقائع التي اسودّ لها لباس الانسانية وتسلبت لحدوثها البشرية ؟ هل يمكن لاحد ان يروي حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض للخلاف في العقيدة مهما عظم الاختلاف

تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر في كل ملة

ثم أرجع الى الامر الاول من الامور الاربعة لان الكلام عليه أقل منه على الامر الثالث . واني لا أستدل على رعاية

الاسلام من الحكماء على الملل غير المسلمة بقول كاتب مسلم وانما ارجع في جميع ما اذكر الى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين واذكر اسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم مالم يبلغه غيرهم

قال المستر درابر أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الاميركان : «ان المسلمين الاولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا اليهم كثيراً من الاعمال الجسام ورقوهم الى المناصب في الدولة حتى ان هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه » (هو يوحنا ابن ماسويه الشهير) وقال في موضع آخر : (كانت ادارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء الى النسطوريين تارة والى اليهود تارة أخرى . لم يكن ينظر الى البلد الذي عاش فيه العالم ولا الى الدين الذى ولد فيه بل لم يكن ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة . قال الخليفة العباسى الاكبر المأمون : (الحكماء هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وارتفعوا

بقواهم عن دنس الطبيعة هم ضياء العالم وهم واضعو قوانينه ولولاهم لسقط العالم فى الجهل والبربرية) . وقال في موضع آخر : (ان العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين) . ولست في حاجة الى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس وأقاموا من المراصد وماحشدوا من الكتب الى المكاتب لان هذا خارج عن بحثنا الآن وسيرد عليك شيء منه فيما بعد

طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء جيورجيس ابن بختيشوع الجنديسابوري طبيب المنصور كان فيلسوفا كبيراً علت منزلته عند المنصور لانه كانت له زوجة عجوز لاتشتهى فأشفق عليه المنصور وأنفذ اليه بثلاث جوار حسان فردهن وقال : ان دينى لايسمح لي بأن أتزوج غير زوجتى مادامت حية : فأعلى مكانته حتى على وزرائه ولما مرض أمر المنصور بحمله الى دار العامة وخرج اليه ماشياً يسأل عن حاله فاستأذنه الحكيم فى رجوعه الى بلده ليدفن مع آبائه فعرض

عليه الاسلام ليدخل الجنة فقال: رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار: فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيق المشهور بالامساك وكزازة اليد) وأوصى من معه بحمله اذا مات فى الطريق الى مدافن آبائه كما طلب . ثم سأله عمن يخلفه عنده فأشار الى عيسى بن شهلاثا أحد تلامذته فأخذه المنصور مكان جيورجيس فطفق يؤذى القسوس والبطارقة ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال منهم رغائبه فشعر الخليفة بذلك فطرده

وممن حظي عند المنصور نوبخت المنجم وولده أبو سهل وكانا فارسيين على مذهب الفرس ثم كانت ذرية مسلمة لابى سهل وكانوا جميعاً منجمين لهم شهرة فى علوم الكواكب فائقة

وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدى تيوفيل ابن توما النصراني المنجم وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان . وله كتب في التاريخ جليلة ونقل كتاب أميروس الى السريانية بأفصح عبارة

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب وجبريل ولده ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني

ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة طبية وغيرها وخدم الرشيد ومن بعده الى المتوكل . وكان يعقد فى داره مجلسا للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع في بيت للمذاكرة في العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل ما يجتمع فى بيت يوحنا بن ماسويه

وممن علا قدره في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون أقامه كذلك أميناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة . وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور وسابور ابنه وكانا نصرانيين . وولى سابور بن سهل بيمار ستان جنديسابور

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيباً عند المعتصم ولما مات جزع عليه جزعا شديداً وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى

وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوما فأجلسه بجانبه وكان عليه دراعة حرير رومية بها فتق فأخذ المتوكل يحادثه ويعبق بالفتق حتى وصل الى النيفق (هو ما اتسع من الثوب) ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل بما ذا تعلمون أن الموسوس (المصاب بخبل فى عقله) يحتاج الى الشد ! فقال بختيشوع : اذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق

شددناه : فضحك المتوكل حتي استلق

وفي أيام المتوكل اشتهر حنين بن اسحق النصراني العبادي وهو من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره وامتحن المتوكل صدقه فظهرت له عزيمة لا تفل فأقطعه اقطاعات واسعة . وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في زمن المأمون وهو فتي فكلفه بترجمة الكتب وكان يعطيه وزن مايترجم ذهباً . وكانت بينه وبين الطيفوري النصراني محاسدة أفضت الى طلب الحكم على حنين في مجلس الاساقفة بالحرم من الكنيسة فمات غما لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة وهذا الطيفوري أيضاً كان من المقربين عند الخلفاء

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري كان متفنناً في جميع العلوم العقلية أخذ عنه أبو نصر الفارابي وانتهت اليه الرئاسة فى بغداد وكان من أهل دير قنى ونشأ فى مدرسة مارمارى وقرأ على روفاييل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة الاسلام وهو نصراني طلبه الخلفاء الى بغداد لاجل الترجمة ثم يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي انتهت اليه الرئاسة ومعرفة العلوم الحكمية فى وقته وقرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي

ومنهم أبو الفرج بن الطيب فيلسوف عالم . قالوا كان كاتب الجاثليق ومتميزاً في النصارى ببغداد وكان يقرئ صناعة الطب فى البيمارستان العضدى وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته وله كلام فيه

وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت بن قرة الحرّاني الصابئ من طائفة الصابئين المعروفة وتربى فى بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكي المشهور وبلغ فى علوم الفلسفة مبلغاً لم يدانه فيه غيره وله تآليف كثيرة في المنطق والطب والرياضيات وبلغ عند المعتضد مقاما تقدم فيه عنده على وزرائه . وولد ثابت هذا سنة احدى عشرة ومئتين بحران . ثم كان ابناه ابراهيم وسنان على قدم أبيهما . ومن حفدته أبو الحسن ثابت بن قرة . وكان ثابت وابراهيم وسنان

صابئين ولهم من المنزلة ماعلمت ومدحهم كثير من شعراء المسلمين وهم صابئة .

ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الاسلام . ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام . هل تريد أن أتم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الاسلام المسلمين الذين نالوا اسمي الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك . هل أنا فى حاجة الى ذكر فيلسوف الاسلام أبي يوسف يعقوب الكندى وهو بصرى الاصل ابن الامير اسحق الذى كان أميراً للمهدي والرشيد على الكوفة وهو من ذرية الاشعث بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عالماً بالطب والفلسفة والهيأة والحساب والموسيقى واشتغل بالترجمة كما اشتغل غيره بها وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منها وكانت له المكانة العليا عند المأمون والمعتصم وولده أحمد . هل أنا في حاجة الى ذكر بني موسى ابن شاكر محمد وأحمد والحسن الذين اشتغلوا في مساحة الكرة الارضية ومعرفة محيطها وقطرها وما كان لهم من المنزلة عند الامراء والخلفاء . أأذكر ابن سينا ومنزلته في قومه ووصوله

الى مسند الوزارة عند شمس الدولة ؟ أم أذكر الفارابي وما كان له من المكانة عند سيف الدولة بن حمدان .

لا ريب أن أبا العلاء المعري يصلح أن يكون رجلا ممن تعنى الجامعة بنشر تراجمهم وقد قال مالم يقل بمثله فولتير وروسو وقد مات مع ذلك على فراشه وقبره اليوم مزار يرحل اليه فى بلده

أظن أنه يسهل بعد سرد ما عددناه أن يعرف قراء الجامعة أن الاسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد وهو ميزان احترام العلماء للعلم . ويسهل عليّ أن ألتمس العذر للجامعة بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث قيل انها حدثت للدين وما حدثت له . بل كان سبب حدوثها إما سياسة خرقاء . أو جهالة عمياء . أو تأريث بعض السفهاء لا أطيل خوف الاملال . وانتقل الآن الى الأمر الثالث وهو المقابلة بين طبيعة الدينين وهو أهم مما سبق ومما سيلحق

طبيعة الدين المسيحي وأصوله

تمهيد ظنت الجامعة أن الدين المسيحي فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ولذلك كان في طبيعته التسامح . أما الدين الاسلامي فمن أصوله أن السلطان ملك وخليفة ديني

وذلك مما يصعب معه التسامح في رأيها

ليس هذا بكاف في بيان طبيعته كل من الدينين واستعدادها للتسامح مع العلم أو مع أية عقيدة تخالفها بل لا بد من بيان أركان الدين وأهم أصوله التي ترجع اليها جميع الفروع وعنها تصدر الآثار الحقيقة

عند النظر في أي دين للحكم له أو عليه في قضية من القضايا يجب أن يؤخذ ممحصاً مما عرض عليه من بعض عادات أهله أو محدثاتهم التي ربما تكون جاءتهم من دين آخر . فاذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لأتباع ذلك الدين في بيان بعض أصوله فليؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الناس الى منشإ الدين ومن تلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه

واني أوجز القول في إيراد الاصول الاولى التي وردت في الاناجيل المعروفة الآن في أيدي المسيحيين ، وجاءت في كلام أئمتهم الاولين ، ثم ايراد ما جر اليه الاخذ بتلك الاصول بحكم طبيعة الدين ،

الاصل الاول للنصرانية الخوارق

أول أصل قام عليه الدين المسيحي وأقوى عماد له هو

خوارق العادات . تقرأ الاناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلا على صدقه الا ما كان يصنع من الخوارق وعددها في الاناجيل يطول شرحه . ثم انه جعل ذلك دليلا على صحة الدين لمن يأتي بعده فجعل لاصحابه ذلك كما تراه في الاصحاح العاشر من انجيل متى وغيره . واذا تتبعت جميع ماقال الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات ، من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات ، ولا يخفى أن خارق العادة هو الامر الذي يصدر مخالفاً لشرائع الكون ونواميسه . فاذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه في الدين لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص

زاد الانجيل على هذا أن الايمان ولو كان مثل حبة خردل كاف في خرق نواميس الكون كما قال في الاصحاح السابع عشر من متى : ١٠ (فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم) وفي الحادي عشر من مرقس (٢٣ لأني الحق أقول لكم ان من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن من ان ما يقوله

يكون فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا ان تنالوه فيكون لكم

فكل بحث يؤدي الى أن للكون شرائع ثابتة وأن للعالل والشرائط أو الأسباب أو الموانع أحكاما في معلولاتها أو ماشرطت فيه أو ماتسبب عنها أو مااستحال وجوده لوجودها كان مضاداً لهذا الاصل في أي زمن وقد كان كل علم من علوم الاكوان لا بد فيه من هذا البحث فكل علم مضاد لهذا الاصل ثم ان صاحب الاعتقاد بهذا الاصل لايحتاج الى البحث في الاسباب والمسببات لان اعتقاده في الشيء أن يكون وإرادته لان يكون كافيان في حصوله فهو في غنى عن العلم والعلم عدو لما يعتقد فما أصعب احتماله اذا جاء يزاحمه في سلطانه

الاصل الثاني للنصرانية سلطة الرؤساء

وبعد هذا الاصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التي منحت للرؤساء على المرؤسين في عقائدهم وما تكنه ضمائرهم . وقد أحكم هذه السلطة ما ورد في ١٦ : ١٩ من انجيل متى : (أعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ماتربطه على الارض يكون مربوطاً في السموات وكل ماتحله على الارض

يكون محلولا في السموات) وفي ١٨ : ١٨ منه « ألحق أقول لكم كل ماتربطونه على الارض يكون مربوطا فى السماء . وكل ماتحلونه على الارض يكون محلولا في السماء »

فاذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص انه ليس بمسيحي صار كذلك واذا قال انه مسيحي فاز بها فليس المعتقد حراً في اعتقاده يتصرف فى معارفه كما يرشده عقله بل عينا قلبه مشدودتان بشفتي رئيسه فاذا اهتزت نفسه الى بحث أوقفها قابض على تلك السلطة . وهذا الاصل ان نازع فيه بعض النصارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرنا طوالا

الاصل الثالث للنصرانية ترك الدنيا

وبعد هذين الاصلين أصل ثالث وهو التجرد من الدنيا والانقطاع الى الآخرة . نجد هذا الاصل فى الاناجيل وفى أعمال الرسل وكلما قرأت في الكتب الاولى عثرت به . وتجد الاوامر الصادرة بالانقطاع الى الملكوت والهروب من عالم الملك صريحة فى الاصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من انجيل متى . فما جاء فى السادس : (لاتقدرون ان تخدموا الله والمال ٢٥ لذلك أقول لكم لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما

تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس (الى أن قال) ٣٣ ولكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم ٣٤ فلا تهتموا للغد لان الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره) وقال فى التاسع عشر : (٢٣ ألحق أقول لكم انه يعسر ان يدخل غني ملكوت السموات ٢٤ وأقول لكم أيضاً ان مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله) وفي العاشر : (٩ لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم ١٠ ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا الخ)

وحث على الرهبانية وترك الزواج وفى ذلك قطع النسل البشري قال فى (١٩ من متى .) (ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لاجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل) . ثم ان ملكوت السموات قد نيط أمره بالايمان المجرد عن النظر فى الاكوان فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الاصل من النظر في اى علم والعلم لا دخل له في شؤون الآخرة والدنيا قد حرمت عليه . لاريب ان همه يكون فى الصلاة وصرف القلب بكليته الى العبادة دون سواها وليس

الفكر في الخليقة من العبادة عنده فان عبادة الانجيل ليست شيئاً سوي الايمان والصلاة

الاصل الرابع للنصرانية الايمان بغير المعقول

وبعد هذا الاصول أصل رابع وهو عند عامة المسيحيين أصل الاصول لا يختلف فيه كاثوليك ولا أرثوذكس ولا بروتستانت وهو ان الايمان منحة لا دخل للعقل فيها وان من الدين ما هو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل وهو مع ذلك مما يجب الايمان به. قال القديس انسيلم: «يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظر ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت» فليس الايمان وهو الوسيلة الفردة الى النجاة في حاجة الى نظر العقل والكون وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل فيه نظره. وقول القديس (ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت) نوع من التفضل على النزعة البشرية الى الفهم وعلى الميل الفطري الى تصور ما يتعلق به الاعتقاد والا فمجرد الايمان كاف في الخلاص. ثم الويل كل الويل لطالب الفهم اذا أدى اجتهاده الى شيء يخالف ما تعلق به ايمانه فكأن معنى الفهم أن يخلق المؤمن لنفسه ما يسلي به نفسه على ايمانه بغير المفهوم

الاصل الخامس للنصرانية ان الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج (اليه البشر في المعاش والمعاد)

ثم ينضم الى الاصول الاربعة خامس وهو ان الكتب المعروفة بالعهد القديم والعهد الجديد تحتوي على كل ما يحتاج البشر الى علمه سواء كان متعلقا بالاعتقادات الدينية والآداب النفسية والاعمال البدنية مما يؤدي الى نيل السعادة في الملكوت الأعلى أو كان من المعارف البشرية التي يتأتى للعقل الانساني أن يتمتع بها . قال تيرتورليان (وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي في نهاية القرن الثالث قبل أن تعرض عليه البدع الكثيرة) : «ان عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية ودليل صحة هذه الكتب قدمها وكونها أقدم من كتاب أميروس وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين وأقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها والزمن ناصر الحقيقة ثم تحقق النبوات التي وردت فيها» ثم قال : (ان أساس كل علم عندهم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة وان الله لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية الى الدين فقط بل علمنا بالوحي كل ما أراد أن نعلمه من الكون فالكتاب المقدس يحتوي من العرفان

على المقدار الذي قدر للبشر ان ينالوه) . فجميع ماجاء في الكتب السماوية من وصف السماء والارض ومافيها وتاريخ الامم مما يجب تسليمه مهما ضارب العقل او خالف شاهد الحس فعلى الناس أن يؤمنوا به أولا ثم يجتهدوا ثانياً فى حمل أنفسهم على فهمه اي على تسليمه أيضا كما ترى وقال بعض فضلائهم : انه يمكن أن يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس

الاصل السادس للنصرانية التفريق بين (المسيحيين وغيرهم حتي الاقربين)

ينظم تلك الاصول كلها أصل سادس وهو آخرها فيما أرى . ذلك الاصل هو الذي ورد فى الاصحاح العاشر من انجيل متى وهو : (٣٤ لاتظنوا اني جئت لألقى سلاما على الارض ماجئت لألقى سلاما بل سيفا ٣٥ فاني جئت لأفرق الانسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها ٣٦ واعداء الانسان أهل بيته .) وقد صرح في عدة مواضع من الانجيل ان الاخلال بشيء من محبة المسيح أو بالانقياد الى جميع ما أوصى به موجب للهلاك وان كان قد جاء فى مواضع كثيرة ان الايمان وحده كاف فى الخلاص غير ان روح الشدة التي جاءت في قوله

(لاتظنوا انى جئت لالقي سلاما الخ) هى التي بقي أثرها في نفوس الاولين من المعتقدين بالدين المسيحي وعفت على آثاره ما كان يصح ان تستشعره النفوس من بعض الوصايا الاخر

﴿ نتائج هذه الاصول وآثارها ﴾

من هنا أعرض المسيحيون الاولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه اظهارا للغنى بالايمان والعبادة عن كل شيء سواهما وحجروا على همم النفوس ان تنهض الا الى الدعوة الى ذلك الايمان وتلك العبادة ووسائل الدعوة هي الايمان والعبادة كذلك فاذا نزعت العقول الى علم شيء من العالم وضعوا امام نظارها كتب العهد القديم وحصروا العلم بين دفاتها استغناء بالوحي عن كل عمل للعقل سوى فهمه من عبارات وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه بل انما يتاتى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفا من الزيغ عن الايمان السليم (البروتستانت رأوا أنه يجوز تفسير الكتاب لغير الكنيسة)

ان إلقاء السيف ووضع التفريق بين الاقارب والاحبة انما جاء حافظا لذلك كله فاذا خطر على قلب أحد خاطر سوء يرمي الى معارضة شيء من أمور الايمان المقررة وجب قطع

طريق على ذلك الخاطر ولم يجز في شأن صاحبه هوادة ولا رحمة كما أفهمه المسيح بعلمه على حسب ما ورد في الانجيل قد قيل له : (٤٧ أمك وأخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك ٤٨ فأجاب وقال للقائل له من هي أمي ومن هم اخوتي ٤٩ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمي واخوتي) ونحو ذلك مما دل على وجوب المقاصعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن يحيد عن شيء من معتقده ولا يخفى أن الشيء يكون بزرة ثم نبتا ثم شجرا فانظر الى ما صار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة

وقر في نفوس المسيحيين أن السلامة في ترك الفكر والاخذ بالتسليم وتقرر عند القوة قاعدة (أن الجهالة أم التقوى) وكثير من أهل الاديان مسيحيين ومسلمين لا يزالون يجرون على هذه القاعدة ببركة ما ورثوا عن أبناء الزمن الغابر) فحصروا التعليم في الاديار ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة الا ما كان دعوة الا الصلاح وتقرير الايمان على وجه ظاهر . وبقي كثير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره ظهرت ذات الذنب التي تنسب الى أهالى في سنة ١٦٨٢ اضطربت لظهورها أوربا ولجأوا الى البابا واستجاروا به

فأجارهم وطردها من الجو فولت فى الفضاء مذعورة من
ولم تعد الا بعد خمس وسبعين سنة ! !

لم يكن يسمح لأحد أن يبدي رأيا يخالف صريح
الكتاب وعندما أظهر بلاج رأيه في أن الموت كان يوجد قبل
أي ان الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطيء آدم بالأ
من الشجرة قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة وانتهى الج
والجلاد الى صدور أمر امبراطوري بقتل كل شخص يق
بذلك . يقول المؤرخ : وهكذا عد الاعتقاد بأن الموت
يزور الاحياء قبل آدم جريمة على الملك

أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية على :
جول قيصر ثم ان تيوفيل بطريرك الاسكندرية انتحل أ
الاسباب لإثارة ثورة فى المدينة لاتلاف مابقي في مك
البطالسة بعضه بالاحراق وبعضه بالتبديد . قال أوروسيو
المؤرخ انه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد أن ن
تيوفيل الامر الامبراطوري باتلافها بنحو عشرين سنة

ثم جاء بعد تيوفيل ابن أخته سيريل وكان خطيباً مفو
له على الشعب سلطان بفصاحته وكان فى الاسكندرية بن

ي هيباتى الرياضية تشتغل بالعلوم والفلسفة وكان يجتمع اليها
ر من أهل النظر فى العلوم الرياضية وكان لا يخلو مجلسها
البحث فى أمور أخر خصوصا في هذه المسائل الثلاث :
أنا والى أين أذهب وماذا يمكنني أن أعلم . فلم يحتمل ذلك
بس سيريل مع ان البنت لم تكن مسيحية بل كانت على
آبائها المصريين فأخذ يثير الشعب عليها حتي قعدوا لها
نوا عليها فى الطريق وهي سائرة الى دار ندوتها وجردوها
يابها وأخذوها الي الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك
طع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقي منها ألقى في النار .
المؤرخ راوي هذه القصة : ولم يسأل سيريل عما صنع بهيباتى
نظر الحكومة الرومانية فيما وقع عليها ولعل ذلك كان أول
ررت تلك القاعدة : (الغاية تشفع للوسيلة)
ما من عقيدة ظهرت في المسيحية وأريد تقريرها من فريق
ع فيها فريق إلا وقد سالت لها الدماء فليراجع التاريخ لتتمثل
، مصر مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين
ما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها لله أما . كان ذلك في
ة الدين : ان من لا يتبع المسيح فهو هالك والهالك لا يستحق

الحياة . ألم تر فى الاصحاح الخامس من الاعمال الى قصة الرجل الذى باع جميع ماعنده وعندما جاء الى بطرس أعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئاً أخفاه عنه فاطلع بطرس على حقيقة الامر وو... الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة ثم جاء امرأته وكان لها اطلاع على ما أخفى زوجها ولم تنهه فوبخها بطرس وأخبرها بموت زوجها فماتت هى أيضاً . فاذا كان الله يسلب الحياة جزاء على اختلاس الرجل شيئاً من مال نفسه لم يقدمه هدية للرسل فكيف تكون الحياة من حقه اذا خالف خلق الله في الارض ونابذهم فيما يعتقدون

قال البابا أنوسان الثالث عند الكلام فى مصادرة الذين يخالفون العقيدة الكاثوليكية : (لا يجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة وترك الحياة لهم منّ واحسان) فلم يقصر الجزاء على الجاحدين ولكن عدّاه الى أولادهم وعدّ ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضربا من الاحسان عليهم لانهم لا حق لهم فى أن يعيشوا وقد جحد آباؤهم

﴿ مقاومة النصرانية للعلم ﴾

لا أجد في التاريخ ذكرا للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية

ن مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده الا في أثناء المنازعات
دينية التي كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك وأخرى بجمع
لجامع وثالثة بسفك الدماء فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين
لحض . وانما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما
ناورها من الملل الأخرى من الحروب الدينيـة للحمل على
عقيدة بما كان يعتقد المسيحيون وما كان يقع بين ملوك أوربا
ن التسافك في الدماء بإغراء رؤساء الكنيسة وأمر ذلك
معروف عند من له إلمام بالتاريخ وليس من موضوعنا الكلام فيه

ولكن أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر في أوربا بعد
ظهور الاسلام واستقرار سلطانه في بلاد الأندلس واحتكاك
الاوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين الى بلادهم وحملوا الى
الناس أخبارا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء
الكنيسة من ان المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الارض
المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد ونفوا منها كل فضيـلة
وإخلاص وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة فلما قفل
الغزاة الى ديارهم قصوا على قومهم أن أعـداءهم كانوا أهل

دين وتوحيد ومروءة وذوي ودّ ووفاء وفضل مجاملة

ثم كان الخليفة الحكم الثاني جعل من بلاد الاندلس فردوسا كما قال الفيلسوف الاميركاني وكان اليهود والنصارى يتلاقون في تلك البلاد تحت ظلال الامن والحرية . قال بطرس المحترم الشهير انه رأى كثيراً من العلماء يأتون الى تلك البلاد لتلقى العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلترا وأولئك الذين يسعون الى طلب العلوم من أى بلاد جاؤا كانوا يجدون فيها رحبا وسعة وكان قصر الخليفة يشبه ان يكون مصنعا للكتب — نسخ وتذهيب وتجليد الخ ماقال

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب ثم اكتشفت المطبعة وسهل على الناس ان ينشروا آراءهم بعد أن تنبهت أفكارهم بما جلب اليهم رسل العلم الذين حملوه اليهم من أهالي اسبانيا ومن حملوه مما جاورها . ثم انساب الى العقول شيء مما سماه الاوربيون فلسفة ابن رشد . عند ذلك اهتمت المسيحية بالامر وأخذت تحارب كل مايظهر على ألسنة الناس أو يرد على أسماعهم مما يخالف ما في الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة قال دى رومنبس : ان قوس قزح ليست قوسا حربية بيد

الله ينتقم بها من عباده اذا أراد بل هي من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء فجلب الى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت في النار . وقيل في علة الحكم : انه أراد الصلح بين كنيستي روما وانكلترا . وأي ذنب أعظم من هذا الصلح ؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش

انشئت المراقبة على المطبوعات وحتم على كل مؤلف وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو مايريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عين للمراقبة وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئاً لم يعرض على المراقب أو ينشر شيئاً لم يأذن المراقب بنشره وأوعز الى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شيء يومئ الى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة (كأن الحكومة العثمانية على ما تنشر بعض الجرائد أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجرى عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين)

انشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عند ما خيف ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً في جنوب فرنسا وإيطاليا . أنشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب توركماندا

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام فى مدة ثماني عشرة سنة ـ من سنة ١٤٨١ الى سنة ١٤٩٩ ـ حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت ثم أحرقت كل توارة بالعبرية

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة « المقدسة » وسيلة واحدة هى أن يحبس المتهم ويجرى عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة الى ان يعترف بما نسب اليه وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ . قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد . وطفر الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر فى كلامه شيئا من الصناعة والعبادة لكن ذلك لم يمنع الامراء

وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول الى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره

اشتدت محكمة التفتيش فى طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعاة الى كسبه ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها ـ فى المدن . في البيوت . فى السراديب . فى الانفاق . في المخازن . فى المطابخ فى المغارات . فى الغابات . وفى الحقول . فوفت بما كلفت به مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين عملا بالقول الجليل « ماجئت لألقي سلاما بل سيفا »

كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم ، والقسوس فى كنائسهم ، والاشراف فى قصورهم ، والتجار بين بضائعهم ، والصناع فى مصانعهم ، والعامة فى بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا ، وأينما ثقفوا ، ويوقفون أمام المحكمة وتصدر الاحكام عليهم يوم اتهامهم

قرر مجمع لاتران أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس فى الكنيسة (أي الاعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها)

تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الاحد فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه في بيته وما يظهر فى أعماله بين أهله . فاذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئاً من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره الى المحكمة فينقض شهاب التهمة عليه فاذا سأل عن الشاهد الذى عول عليه فى اتهامه لا يجاب وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد وهو من أهله حتى يعترف

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب فى قلوب أهل أوربا ماخيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر اذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه وأن السلاسل والاغلال أسبق الى عنقه ويديه ، من ورود الفكرة العلمية اليه ، وقال باغليادیس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد : « يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحيا ويموت على فراشه »

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ الى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة منهم نحو مائتي ألف

احرقوا بالنار أحياء

﴿ اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة ﴾

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية فى أوربا على زعم القسوس وكان ابن رشد استاذاً يتعلم عنده كثير من اليهود وقد اتهموا بنشر أفكاره وآرائه ثم هو مع ذلك مسلم صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معا فصدر الامر فى ٣٠ مارس (آذار) سنة ١٤٩٢ بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أى سن كان وعلى اي حال كان يجب ان يترك بلاد اسبانيا قبل شهر يوليو (تموز) ومن رجع منهم الى هذه البلاد عوقب بالقتل وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون من عقار ومنقول بشرط ان لا يأخذوا فى الثمن ذهبا ولا فضة وإنما يأخذون الاثمان عروضا وحوالات . ومن ذا الذى يشترى اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن ؟ (يعنى أن أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذي يتم فى يوليو) وصدر أمر توركماندو أن لا يساعدهم أحد من سكان اسبانيا في أمر من أمورهم . وهكذا خرج اليهود تاركين كل ما يملكون ناجين بأرواحهم على أنه لا نجاة لكثير منها فقد اغتالها الجوع

ومشقة السفر مع العدم والفقر

وفي فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الامر بطرد اعداء الله المغاربة (المسلمين) من أشبيلية وما حولها — من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد اسبانيا قبل شهر ابريل (نيسان) وأبيح لهم ان يبيعوا مايملكون على الشرط الذي وضع لليهود . ولكن وضع للمسلمين شرط آخر وهو أن لا يذهبوا فى طريق يؤدى الى بلاد اسلامية ومن خالف فجزاؤه القتل . فهؤلاء المساكين نفوا جميعا الى القتل ان لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالتعب مع العرى والجوع

ألا يعجب القارئ اذا رأى أن برونو يحرق بالنار حيا بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لانه قال بقول الصوفية فى وحدة الوجود وقال ان هذا العالم يحتوي على عوامل كثيرة . الحمد لله رب العالمين

ظهر القول بكروية الارض — ذلك الامر الذى عرفه المسلمون وصار رأيا لهم فى أول خلافة بني العباس ولم تتحرك له شعرة في بدن — فاحدث اضطرابا شديدا في عالم النصرانية ولا يسع هذا المقال ماوقع من الحوادث في شانه

هل يصدق القارئ ان ماقصده كريستوف كولمب من السفر في المحيط الاطلانطيق لعله يكتشف أرضا جديدة كان من الامور التي اهتمت لها الكنيسة وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لاصول الدين ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريزيستوم واوغستين وجيروم وغريغوار وبازيل وانبرواز وعلى رسائل الرسل والاناجيل والنبوات والزبور والاسفار الخمسة ولم ينتج هذا العرض شيئا . ولكن ساعده على ماقصد بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم . قال كريستوف كولمب ان الذي أوحي اليه هذا القصد النبيل هي كتب ابن رشد . من هنا نفهم لم قامت له الكنيسة وقعدت .

ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الاصل الجليل (السلطة للقسوس والطاعة على العامة) كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدر الديني الذي يربط ويحل في الارض والسماء فهو باطل تجب مقاومته بكل مايستطاع . لهذا حكم على غاليلي الذي ذهب الى ان حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد : هل تدري ماذا حصل من المقاومة لادخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض ؟ اكتشفت هـذه الطريقة الطبية عند المسلمين في الأستانة ثم نقلتها الى أوروبا امرأة تسمى مارى مونتاجو سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها واحتيج في تعضيدها الى التماس المساعدة من ملك انكلترا وعادت هـذه الشـدة في المعارضة عند ما اكتشفت طريقة تعطيم الجدرى

مقاومة تسهيل الولادة : أيّ مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لا تحس بألم الطلق . اكتشاف أميركاني رأت حضرات القسوس فيـه انه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها في سفر التكوين (إذ جاء في الاصحاح الثالث منـه : « وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حملك بالوجع تلدين أولاداً »)

مقاومة السلطة المدنية وحرية الاعتقاد : نشر البابا منشورا في سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية أو جواز أن يفسر أحدشيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة أو يعتقد بأن الشخص حر فيما يعتقد

ويدين به ربه • وفي منشور له سنة ١٨٦٨ أن المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم ودعا الروم الارثوذكس والبروتستانت الى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه.

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة بروسيا والبابا في عزل أستاذ في إحدى الكليات رأى رأيا لا يروق للحزب الكاثوليكي فحرمه البابا وطلب من الحكومة عزله وكانت إحدى المعضلات السياسية غير أن عزيمة بسمارك نصرت مدنية القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة وأبقت الاستاذ وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية

مقاومة الجميات العلمية والكتب : لا أذكر الجمعيات العلمية (الاكادميات) التي ألغيت والاجتماعات التي عطلت لا لشيء كان فيها سوى هداية البشر الى منافعهم وتنوير بصائرهم بكشف ما احتجب عنهم من سر الخليقة بالبحث النظري ومن الطريق العقلي من غير استشارة المسيطر الإلهي وهو الكنيسة ولكن أذكر شيئاً واحداً وهو أن الكردينال اكسيمنيس أحرق في غرناطه ثمانية آلاف كتاب بخط القلم فيها كثير من

ترجمة الكتب المعوّل عليها عند علماء أوربا لذلك العهد

البروتستانت أو الاصلاح

ربما يقول قائل أن هذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ولكن قد قام في المسيحية مصلحون يرون إرجاع الدين الى أصل الكتب المقدسة ويبيحون لعامة أهل الدين أن ينظروا فيها ويفهموها وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول ومن عهد ظهور الاصلاح والرجوع إلى أصول الدين الأولى بزغت شمس العلم بالمغرب وبسط للعلم بساط التسامح وذلك لا يمكن أن يكون الا جريا مع طبيعة الدين

لا أذكر في الجواب عن ذلك الا ماذكر البروتستانت أنفسهم في تاريخ الاصلاح : استمرت عقوبة الموت قانونا يحكم به على كل من يخالف معتقداً لطائفة وقد أمر كلفان [1] باحراق سيرفيت في جنيف لأنه كان يعتقد أن الدين المسيحي كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع نيقه . وكان يقول : ان روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها . فكان جزاؤه على هذا ان شوى على النار حتى مات وهكذا أحرق فاينى في تلوز سنة ١٦٢٩

(١) كلفان هو الزعيم الثاني للبرتستانت ولوتر الاول

كان لوتير أشد الناس انكاراً على من ينظر في فلسفة أرسطو وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب ونحو ذلك من الألقاب التى لا بأس بها اذا صدرت من أهل الغيرة على الدين في طريق الدفاع عنه !! وكان كلفان أقل شتماً للفيلسوف من لوتير لكنه لم يكن أحسن ظناً به ولا أوسع صدراً لمن يطلع على شيء من كتبه وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف (المعلم الاول) فتأمل الفرق بين الفريقين !!

قالوا : البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم الكتب المقدسة وبإبطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الاخروية وابطال عبادة الصور . ولكنهم لم يغيروا شيئاً من الاعتقاد بأن الكتب المقدسة هى نبراس الهداية في طريق العلم البشري كما انها منبع نور الايمان بالدين الالهي وانه لا يباح للعقل أن ينساق فى نظره الى ما يخالف شيئاً مما حوته وأنه لا حاجة الى شيء من العلم وراء ما ورد فيها . وبالجملة انهم لم يبطلوا أصلا من الاصول الستة التى تقدمت إلا أنهم قالوا بمنع غلوّ الرؤساء فى سلطتهم المبنية على

الاصل الثاني في سابق قولنا •

قالوا : ولهذا لم يكن مذهب الاصلاح أخف وطأة على العلم ولا أفضل معاملة له من الكاثوليك لأن كلا المذهبين يرجع الى طبيعة واحدة (وهى القائمة على الاصول الستة) ولم يكن لاهل النظر العقلى جزاء فى كلا الملتين الا القتل وسفك الدماء

لو كنت ممن يحب الجدال في الدين لمددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحى ماتضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية واضطهادات الكنيسة : (ما أهون الدم على من يمثل في عبادته أكل الدم وعلى من يعتقد أن خلاص العالم الانساني من الخطيئة انما كان بسفك الدم البريء على يد المعتدى الاثيم) لكني في بحثى هذا لا أريد أن أستعمل قوة الخيال ، ولا أن أذكر ما يعد من قبيل الجدال ، وانما آتي بما هو حكاية حال ، ليس للناظر فيها مقال •

الفصل بين السلطتين في المسيحية

بقى علينا الكلام فيما جملته الجامعة أساسا للفصل بين السلطتين الدينيـة والملكية وبه كانت طبيعة الدين المسيحي أدعي الى التسامح مع العلم في نظرها • لو سلمنا أن فى تلك

العبارة معنى الفصل كما قالت الجامعة وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السلطة الدينية فماذا يفيد الفصل اذا كان دين الملك نفسه يقضي عليه بمعاداة العلم ؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما علاك نفسه مما فيه نجاته الروحيـة على مطالب الملك ؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قربانا للسلطان عقيدته . هب ان مصالح الملك تكون دائما أغلب على النفس من حكم العـقيدة وقاهر الايمان والوجدان وقد أقام الدين سلطتين منفصلتين احداهما تحل وتربط في الارض وفي السماء فيما هو من خاصـة الدين والاخرى تحـل وتربط في الارض فيما هو من خصائص الدنيا . أفلا يكون هذا الفصل قاضيا بتنازع السلطتين وطلب كل واحدة منهما التغلب على الاخرى فيمن تحت رعايتهما معا ؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف في أبدانهم وأموالهم بل وفي عقولهم أيدي الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفاني اذا كان ذلك التصرف مخالفا لما جاء في كنز المعارف وهو الكتب السماوية وتأويل الرؤساء الروحيين وسننهم فاذا همت هذه السلطة بالمعارضة أفتصبر الاخرى ؟ هذا هو الذى وقع في العالم المسيحي منذ ظهرت سلطة الدين

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها والسلطة الدينية إنما تستمد حكمها من الله ثم تمد نفوذها بتلك القوة الى اعماق قلوب الناس وتديرها كيف تشاء . والملك لا قوة له إلا بأولئك الناس المغلوبين للسلطة الدينية ؟ لا يتأتي للملك أن يغالب تلك القوة الا بعد أن يتناول من الوسائل مالا يعد لاضعاف سلطتها . ثم هذا الفصل يسهل التسامح لو كانت الابدان التي يحكمها الملك يمكنها أن تأتى أعمالها على حدة مستقلة عن الارواح التى تحيا بها والارواح كذلك تأتى أعمالها بدون الابدان التي تحمل قواها

ثم هل هذا هو معنى قول الانجيل ؟ القصة على ما جاء في الانجيل ان بعض المرائين اراد ان يتسقط المسيح ليأخذ عليه ماينم به فساله : أيجوز أن نعطي جزية لقيصر ؟ فأجاب لم تجربوني ؟ ائتونى بدينار لأنظر اليه ، فأتوه بدينار فقال : لمن هذه الصورة والكتابة قالوا له لقيصر فقال : اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فمعناه الظاهر من سياق القصة ان صاحب السكة التي تتعاملون بها اذا ضرب عليكم ان تدفعوا منها شيئاً فادفعوه له اما قلوبكم وعقولكم وجميع ما هو من الله

وعليه طابع صنعته فلا تعطوا منه لقيصر شيئاً . والعلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع الله فلا يمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية الدينية . فأي تسامح مع العلم في هذا ؟

﴿ اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية ﴾

هذا الذي عرضناه من طبيعة الدين المسيحي وأوردناه من مشاربه فيما بعد نشأته وما وقع من حوادث أهله مع طلاب العلم ورواد المعارف في كل زمن الى ما يقرب من أيامنا هذه كل ذلك مأخوذ من تاريخهم الذي كتبوه عن أنفسهم ومن نصوص كتبهم الدينية التي يتوكئون عليها فيما ذكرناه من سيرتهم وأعمالهم

أما رأيي ورأى أهل العقيدة الصحيحة من المسلمين فى المسيح عليه السلام ودينه فهو على غير ما رآه القارئ . انا نعتقد أن المسيح روح الله وكلمته ورسوله الى بنى اسرائيل بعث مصدقا لما بين يديه من التوراة وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد في شؤون معاشهم ومعادهم ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التي منحهم الله تعالى إياها بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها ولا يشكر حق الشكر إلا باستعمالها جميعاً فيما

أعدها الله له . والعقل من أجل القوى بل هى قوة القوى الانسانية وعمادها والكون جميعه هو صحيفته التى ينظر فيها وكتابه الذي يتلوه وكل مايقرأ فيه فهو هداية الى الله وسبيل للوصول اليه . وكل ماصح عندنا عن السيد المسيح لايخالف شيء منه هذا الذي نعتقد . فان صح عنه شيء يكون في ظاهره مخالفة لهذه الاصول أمكننا تأويله حتى يرجع معناه اليها أو وكلنا الامر فيه الى الله وقلنا (لا علم لنا إلا ماعلمتنا)

الدين دين الله وهو دين واحد فى الاولين والآخرين لايختلف الا صوره ومظاهره . وأما روحه وحقيقته ماطولب به العالمون أجمعون على ألسن الانبياء والمرسلين فهو لا يتغير - إيمان بالله وحده واخلاص له في العبادة ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير وكف أذاهم بعضهم عن بعض ماقدروا . وهذا لاينافى الارتقاء في الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية ونعتقد أن دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الاصول ومن أهم وظائفه ازالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب ودعوتهم الى الاتفاق والاخاء والمودة والائتلاف وهذا ما عمل عليه المسلمون قرنا بعد قرن قوة تمسكهم بالاسلام

فاذا سأل سائل : اذا كان ذلك الذي قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الاوربيين أنفسهم في منافاة طبيعة الدين للعلم واشتداده في معاداته فما هذا الانقلاب الذي حصل في أوربا وما هـذا التسامح الذي يتمتع به العلم اليوم في أقطارها ؟ فجوابه في الـكلام على الامر الرابع مما ذكرت الجامعة وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الاسلامي وما يليق أن يكون له مع العلم وما انجر اليه الحال بمقتضى تلك الطبيعة وما عرض عليها مما سترها وحال بينها وبين أثرها في أخريات الايام وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى

القسم الثاني في الاسلام

طبيعة الاسلام مع العلم بمقتضى أصوله

(تمهيد للاصل الاول) للاسلام في الحقيقة دعوتان ـ دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة الى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . فأما الدعوة الاولى فلم يعول فيها الا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه الى النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون من النظام

والترتيب وتعاقد الاسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن للكون صانعاً واجب الوجود عالما حكيما قادراً وان ذلك الصانع واحد لوحدة النظام في الأكوان . وأطلق للعقل البشري أن يجرى فى سبيله الذي سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه الى أن خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها فى تسخير الفلك لمنافعه وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماءً فتحيا به الارض بعد موتها وتنبت ماشاء الله من النبات والشجر مما فيه رزق الحي وحفاظ حياته ـ كل ذلك من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل الى معرفته

ثم قد يزيده تنبيهاً بذكر أصل للكون يمكن الوصول الى شيء منه بالبحث فى عوالمه فيذكر ما كان عليه الأمر في أول خلق السموات والأرض كما جاء في آية : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) ونحوها من الآيات . وهو إطلاق لعنان العقل ليجري شوطه الذى قدر له فى طريق الوصول الى ما كانت عليه الأكوان وقد يزيد

التنبيه تأثيراً في إيقاظ العقل مايؤيد ذلك من السنة كما جاء في في خبر من سأل النبي صلى الله عليه وسلم وآله : أين كان ربنا قبل السموات والأرض فأجابه عليه السلام : «كان في عماء تحته هواء» [١] والعماء عندهم السحاب . فترى القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى لايقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارئ القرآن يغني عن سرد الآيات الداعية الى النظر في آيات الكون ـ «أوَلَمْ ينظُروا في ملكوت السمواتِ والارضِ وما خلقَ اللهُ من شيءٍ» (وآيةٌ لهمُ الأرضُ الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنهُ يأكلونَ) (ومِنْ آياتِهِ خلقُ السمواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتكُمْ وألوانكمْ) وأمثال ذلك . فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه في مقالي هذا .

يذكر القرآن إجمالا من آثار الله في الاكوان تحريكا للعبرة ، وتذكيراً بالنعمة ، وحفزاً للفكرة ، لاتقريرا لقواعد

---

(١) رواه ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ في العظمة عن أبي رزين السائل (رض) والحديث من المتشابهات لا يعرف تأويله الا الراسخون

الطبيعة ، ولا إلزاما باعتقاد خاص في الخليقة ، وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيل ، أنظر كيف يقرع بالدليل ، « لو كانَ فيهما آلهةٌ الا اللهُ لفسدَتَا » (ما اتّخذ اللهُ من ولدٍ وما كانَ معه منْ إلهٍ إذاً لذهبَ كلُ إلهٍ بما خلَقَ ولَعَلاَ بعضُهم على بعضٍ سبحانَ اللهِ عمّا يصفون)

فالاسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفطري (وهو ما تسميه بالنظام الطبيعي) فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية ، وقد اتفق المسلمون الا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وانه لا يمكن الايمان بالرسل الا بعد الايمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة [1]

---

(١) المنار — اي لا يؤخذ منها بالتسليم بناء على انها من الله ولا ينافي هذا ويؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل وكتبهم بما يقيمون من البرهان على ذلك لا بمجرد التسليم ولا باعتبار انهم رسل الله ثم بعد الايمان بالله وبهم يكمل إيمان المؤمن بالاخذ عنهم

فانه لا يعقل ان تؤمن بكتاب أنزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبانه يجوز ان ينزل كتابا أو يرسل رسولاً

وقالوا كذلك ان أول واجب يلزم المكلف ان يأتي به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه الى تحصيل الايمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة

وأما الدعوة الثانية فهي التي يحتج فيها الاسلام بخارق العادة وما أدراك ماهو الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الاسلام في دعوته الى التصديق برسالة النبي عليه السلام . هذا الخارق للعادة هو الذى تواتر خبره . ولم ينقطع أثره . هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد في الاخبار سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهى فليس مما يوجب القطع عند المسلمين فاذا أورد في مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل أصله . وفضل من التأكيد لمن سلمه من اهله . ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على انه معجزة خارقة للعادة تدل على ان موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر هو انه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم وقد نزل على

وتيرة واحدة هاديا للضال مقوما للمعوج كافلا بنظام عام لحياة من يهتدي به من الامم منقذاً لهم من خسران كانوا فيه، وهلاك كانوا أشرفوا عليه ، وهو مع ذلك من بلاغة الاسلوب على مالم يرتق اليه كلام سواه حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء ان يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ولجأوا الى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به الى ان ألجأهم الى الدفاع عن حقهم وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الاسلام تمد عالمها بأضوائها ، وتنشر أنوارها في جوانبها .

وهذا الخارق قد دعى الناس الى النظر فيه بعقولهم وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ماتنتهى اليه قوتهم فان وجدوا طريقاً لابطال اعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على المدعى فعليهم ان يأتوا به . قال تعالى : (وان كنتم فى ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وقال : (أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل

معجزة القرآن جامع من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهى معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها وأطلقت له حق النظر في أحنائها ، ونشر ما انطوى فى أثنائها . وله منها حظه الذى لا ينتقص فهى معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها . ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ماتشاء منها . أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم أو شفاء علة من بدن فهى مما ينقطع عنده العقل . ويجمد لديه الفهم . وانما يأتي بها الله على يد رسله لاسكات أقوام غلبهم الوهم ولم تضيء عقولهم بنور العلم . وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات . للامم على حسب الاستعدادات[1] ،

ثم ان الاسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلا على الحق لغير الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير الى أن الداعين اليه يمكنهم أن يغيروا شيئاً من سنة الله فى الخليقة ولا حاجة الى بيان ذلك فهو أشهر من أن يحتاج الى تعريف

---

(١) راجع الصفحة ٣٧١ من مجلد المنار الرابع وانظر الكلام فى الآيات الكونية والآيات النفسية العلمية

الاصل الاول للاسلام النظر العقلي لتحصيل الايمان (١)

فأول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلي ، والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح فقد أقامك معه على سبيل الحجة وقاضاك الى العقل ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن الى سلطته فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه،

بلغ هذا الاصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة. إن الذي يستقصى جهده في الوصول الى الحق ثم لم يصل اليه ومات طالباً غير واقف عند الظن فهو ناج . فأي سعة لا ينظر اليها الحرج أكمل من هذه السعة

(الاصل الثاني للاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض)

أسرع اليك بذكر أصل يتبع هذا الاصل المتقدم قبل أن أنتقل الى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع

---

(١) هذا الاصل وما بعده ضد الاصل الرابع من أصوله النصرانية « راجع ص ٢٩ »

الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الامر الى الله في علمه.

والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل . وبهذا الاصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مهدت بين يدي العقل كل سبيل . وأزيلت من سبيله جميع العقبات . واتسع له المجال الى غير حد . فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتي يذهب الى ماهو أبعد من هذا ؟ وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ان لم يسعهم هذا الفضاء؟ ان لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء باجرامها وأبعادها .

(اصل ثالث من أصول الاحكام في الاسلام البعد عن التكفير) .

هلا ذهبت من هذين الاصلين الي ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم وهو : اذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد حمل على الايمان ولا يجوز حمله على الكفر . فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الايمان من وجه

واحد من مئة وجه ؟ اذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الاجدر به ان يذوق حكم محكمة التفتيش البابويةويؤخذبيديه ورجليه فيلقى في النار

﴿ اصل رابع في الاسلام الاعتبار بسنن الله في الخلق ﴾ (١)

يتبع ذلك الاصل الاول في الاعتقاد ـ وهوأن لا يعول بعد الانبياء في الدعوة الى الحق على غير الدليل وان لا ينظر الى العجائب والغرائب وخوارق العادات ـ أصل آخر وضع لتقويم ملكات الانفس القائمة على طريق الاسلام وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها . ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفي آثار سيرهم فيهم . فمما جاء في الكتاب العزيز مقرراً لهذا الاصل (قَدْ خَلَتْ مِن قبلِكُم سُنَنٌ فسيرُوا في الارض فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين ـ سنة مَنْ قَدْ أرْسَلْنَا قبلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تجدُ لسنّتنا تحْويلاً ـ فهل ينظُرُونَ إلاَّ سُنَّةَ الاوّلِينَ فلَنْ تجدَ لسنّةِ اللهِ تبْديلاً ولَنْ تجد لِسنّةِ اللهِ تحْويلا ـ أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الخ

---

(١) هذا الاصل ضد الاصل الاول للنصرانية « راجع ٢٤

في هذا يصرح الكتاب بأن لله في الأمم والأكوان سنناً لا تتبدل والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار وهى التى تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها قوم بالقوانين . مالنا ولاختلاف العبارات . الذى ينادي به الكتاب أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد اليها أعماله ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن الا الشقاء وان ارتفع الى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه . فمهما بحث الناظر وفكر . وكشف وقرر . وأتى انا بأحكام تلك السنن . فهو يجرى مع طبيعة الدين . وطبيعة الدين لا تتجافي عنه . ولا تنفر منه . فلم لا يعظم تسامحها معه

جاء الاسلام لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية أو رومانية أو غيرها فى أى لباس وجدت . وفى أى صورة ظهرت . وتحت أي اسم عرفت . ولكن كتابه عربي والعربية لغة أولئك الوثنيين . أعدائه الاقربين . وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولا تعرف أوضاعه حتي تعرف مواضع استعمال

كلمه وأساليبه ، ولن يكون ذلك الا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومنثور وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعين عند الناظر فى كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المسلمون الاولون - ركبوا الاسفار . وأنفقوا الاعمار . وبذلوا الدرهم والدينار . فى جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره توسلا بذلك الى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضربا من ضروب العبادة . يرجون من الله فيه حسن المثوبة . فكان من طبيعة الدين أن لا يحتقر العلم للدين الذى ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين علم ما ليس منه متى حسنت النية فى تناوله . وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته الا أهل العلم به أما المسيحيون الاولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانياً كان أو عبرانياً وكتبوا الاناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب فى العبرية الا انجيل متى فيما يقال . ألا ترى أن اسم الانجيل نفسه يوناني ؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظهم بلغتهم . وتحرجا من النظر فى دواوين آدابهم وما توارثوا من عاداتهم

———

الاصل الخامس للاسلام قلب السلطة الدينية (١)

أصل من أصول الاسـلام انتقل اليه وما أجله من أصل ـ قلب السلطه الدينية والاتيان عليها من أساسها . هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم . لم يدع الاسلام لاحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على ايمانه (على أن الرسول عليه السلام كان مبلغاً ومذكراً ، لا مهيمناً ومسيطرا ، قال تعالى « فذكّر إنّما أنتَ مذكّر لستَ عليهمْ بمسيْطرٌ » (ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا في الارض ولا في السماء . بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رق الا العبودية لله وحده ، وليس لمسلم مهما علا كعبه فى الاسـلام على آخر مهما انحط منزلة فيه الا حق النصيحة والارشاد . قال تعالى في وصف الناجين: «وتَوَاصوْا بالحقّ وَتوَاصوْا بالصبْرِ » وقال: (ولتَكنْ منكم أمّةٌ يدعونَ إلي الْخيْرِ وَيأمرونَ بالمعْرُوفِ وَينْهوْنَ عنِ المنْكرِ

---

(١) هذا الاصل هو ضد الاصـل الثاني من أصول النصرانية اجع صحيفة ٢٦

وأولئكَ هم المفلحونَ) وقال : (فلولا نفرَ منْ كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدين وَلينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرونَ) فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير وهم المراقبون عليها يردونها الى السبيل السوى اذا انحرفت عنه . وتلك الامة ليس لها فيهم الا الدعوة والتذكير ، والانذار والتحذير ، ولا يجوز لها ولا لاحد من الناس أن يتتبع عورة أحد . ولا يسوغ لقوي ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد . وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول مايعمل به عن أحد الا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم : لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف ، وانما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله مايؤهله للفهم كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة في زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فان لم تسمح له حاله بالوصول الى مايعهده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين

بهما . وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على مايجيب به
سواء كان السؤال في أمر الاعتقاد أو في حكم عمل من الاعمال
فليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من
الوجوه

﴿ السلطان في الاسلام ﴾

لكن الاسلام دين وشرع فقد وضع حدوداً ورسم حقوقاً
وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجرى عليه في عمله .
فقد يغلب الهوى . وتحكم الشهوة . فيغمط الحق أو يتعدى
المعتدي الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الاحكام الا اذا
وجدت قوة لاقامة الحدود . وتنفيذ حكم القاضي بالحق .
وصون نظام الجماعة وتلك القوة لايجوز أن تكون فوضى في
عدد كثير فلا بد ان تكون في واحد وهو السلطان أو الخليفة
الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط
الوحى . ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم
شرط فيه ان يكون مجتهداً أي أن يكون من العلم باللغة العربية
وما معها مما تقدم ذكره بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب
والسنة مايحتاج اليه من الاحكام حتى يتمكن بنفسه من التمييز

بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه اقامة العدل الذى يطالبه به الدين والامة معا .

هو على هـذا ـ لايخصه الدين فى فهم الكتاب والعلم بالاحكام بمزية . ولا يرتفع به الى منزلة . بل هو وسائر طلاب الفهم سواء . انما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الاصابة في الحكم (١) ثم هو مطاع مادام على المحجة . ونهج الكتاب والسنة . والمسلمون له بالمرصاد فاذا انحرف عن النهج اقاموه عليه . واذا اعوج قوموه بالنصيحة والاعذار اليه . (٢) « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » (٣) فاذا فارق الكتاب والسنة في عمله . وجب عليهم ان يستبدلوا به غيره مالم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه . (٤) فالامة أو نائب الامة هو الذى

---

(١) المنار ــ من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم فى الفهم والعلم . ألم يأتك نبأ الامام مالك مع الخليفة هرون الرشيد « رحمهما الله » وكيف انزل الامام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند القاء الدرس لانه في رتبة المستفيد (٢) من شواهد ذلك قول الخليفة الاول رضي الله عنه في خطبته « وان زغت فقوموني » راجع ٧٣٤ من مجلد المنار الرابع (٣) حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما راجع ٧٣٢ من مجلد المنار الرابع (٤) مثال ذلك ان يكون له عصبية

بنصبه ، والامة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه . وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدنيٌّ من جميع الوجوه .

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (تيوكراتيك) أي سلطان الهي . فان ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله وله حق الاثرة بالتشريع ، وله في رقاب الناس حق الطاعة لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل بمقتضى الايمان فليس للمؤمن مادام مؤمنا أن يخالفه وان اعتقد انه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله مالا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه . لان عمل صاحب السلطان الديني وقوله في أي مظهر ظهراهما دين وشرع . هكذا كانت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى . ولا تزال الكنيسة تدعي الحق في هذه السلطة كما سبقت الاشارة اليه .

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنيـة فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والاعمال فيما هو من معاملة العبد لربه . وتشرع وتنسخ ماتشاء

...ى من الامة يخشى أن يبيدها بها (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح)

وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطي كما تريد ، وخول السلطة المدنية حق التشريع في معاملات الناس بعضهم لبعض وحق السيطرة على مايحفظ نظام اجتماعهم ، في معاشهم لا في معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعاً للخير الاعم عندهم . ثم هم يهمون فيما يرمون به الاسلام من أنه يحتم قرن السلطتين في شخص واحد . ويظنون أن معنى ذلك في رأي المسلم ان السلطان هو مقرر الدين وهو واضع أحكامه وهو منفذها والايمان آلة في يده يتصرف بها في القلوب بالاخضاع ، وفي العقول بالاقناع ، وما العقل والوجدان عنده الا متاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه . وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمي حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاسلامي أن يأخذ بالتسامح مع العلم مادام من أصوله أن إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين . وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الاصل من أصول الاسلام . وعلمت أن ليس في الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة الى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خولها الله لادنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها

لاعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم (الجامعة) ان مسألة السلطان في دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم ، وقد تقدم مايشير الى ماصنع الخلفاء العباسيون والامويون الاندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء : وربما أتينا على شئ آخر منه فيما بعد

يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو المفتي أو شيخ الاسلام ، وأقول : ان الاسلام لم يجعل لهؤلاء ادنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامي . ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على ايمان أحد أو عبادته لربه أو ينازعه في طريق نظره

(الاصل السادس للاسلام حماية الدعوة لمنع الفتنة)

قالوا : ان الدين الاسلامي دين جهادي شرع في القتال ولم يكن شرع في الدين المسيحي ففي طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضي بهما شريعة المسالمة وهي الشريعة التي وردت فيه كثير من الوصايا المسيحية (من ضربك على خدك الايسر فادر له

الايمن من سخرك ميلا فسر معه ميلين) ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة الاعداء وإن كانت محبة العدو مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق وانما الاختيارى العدل بين الاعداء والاولياء . لكن فى ملكوت الله كل شيء مستطاع ولا شيء فيه بمستحيل . قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الاسلامى أو هو في طبيعة كل قادر يعذر الى خصمه؟ . ليس القتل في طبيعة الاسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة (خذ العَفوَ وأمرْ بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ولكن القتال فيه لردّ اعتداء المعتدين على الحق وأهله الى ان يأمن شرهم ويضمن السلامة من غوائلهم . ولم يكن ذلك للاكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه . ولهذا لا تسمع فى تاريخ الفتوح الاسلامية ماتسمعه في الحروب المسيحية . عند ما اقتدر اصحاب (شريعة المسالمة) على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والاطفال

لم تقع حرب اسلامية بقصد الابادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بايدي المسيحيين . وانما كان الصبر والمسالمة ديناً عند ما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين وغاية مايقال

إن العناية الإلهية منحت الاسلام في الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه مالم تمنحه لغيره في الزمن الطويل . فتيسر له فى شبيبته مالم يتيسر لغيره الا فى كهولته أو شيخوخته .

مقابلة بين الاسلام الحربي والمسيحية السلمية

الاسلام الحربى كان يكتفي من الفتح بادخال الارض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون مايجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد . وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لايضايقون في عمل ولا يضامون فى معاملة . خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والاديار لمجرد العبادة كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والاطفال ، وكل من لم يعن على القتال ، جاءت السنة المتواترة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة وبتقرير مالهم من الحقوق على المسلمين (لهم مالنا وعليهم ماعلينا) و (من آذى ذمياً فليس منا) واستمر العمل على ذلك مااستمرت قوة الاسلام . ولست

أبالي اذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الاحكام ، عند مابدأ الضعف في الاسلام ، ـ وضيق الصدر من طبع الضعيف ـ فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطينته .

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لايحتملها الصبر مهما عظم حتى اذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم أجلتهم عن ديارهم . وغسلت الديار من آثارهم كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقا لا يمنع غير المسيحي من تعدى المسيحي الا كثرة العدد . أوشدة العضد . كما شاهد التاريخ وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لانه ماجاء ليلقي سلاما بل سيفا ولانه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه [1] والاسلام يقول كتابه فى شأن الوالدين : (وإن جاهَدَاكَ على أن تشرِكَ بي ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ فلا تطعْهمَا

(١) تقدم نص انجيل متي فى هذا . ومثله قول انجيل لوقا ١٤ ــ ٢٥ و٢٦ (وقال لهم يسوع) ان كان أحد يأتي الي ولا يبغض اباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته واخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون .

وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من اناب إلىّ) فهو في اشتداده على المهدين لامته لايقضي بالفرقة بين أب وابن ولا

لي تلميذاً) • وفي الباب ١٩ من هذا الانجيل مانصه ٢٧ اما اعدائي اولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم تأتوا بهم الي هنا وذبحوهم قدامي) •
واما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك في القسوة على الاهلين المخالفين وعلى سائر المحاربين • قال في ١٣ : ٩ من تثنية الاشتراع (واذا اغواك سراً أخوك ابن امك أو ابنك أو ابنتك او امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلا نذهب ونعبد آلهة اخرى لم تعرفها انت ولا آباؤك من آلهة الشعوب القريبين منك أو البعدين عنك من أقصاء الارض الي اقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا تقتله ! الخ) .

وفي سفره التثنية أيضاً (٢٠•١٠–١٦) مانصه (حين تقرب من مدينة لتحاربها الي الصلح فان اجابتك الي الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك • وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها واذا دفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف واما النساء والاطفال والبهائم وكل مافي المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة اعدائك الذي اعطاك الرب الهك • وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً منك التى ليست من مدن هؤلاء الامم هنا وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيباً فلا تستبق منهم نسمة ما)

بين ام وبنت . بل يأمر الاولاد المؤمنين ان يصحبوا آباؤهم المشركين بالمعروف فى الدنيا مع محافظتهم على دينهم

فانت ترى الاسلام من جهة يكتفى من الامم والطوائف التي يغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم وبأن يعيشوا في هدوء لا يمكرون معه صفو الدولة ولا يخلون بنظام السلطة العامة ثم يرخي لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شؤونهم الخاصة بهم لا رقيب عليهم فيها الا ضمائرهم . ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قرباهم من المشركين ويطالبهم بحسن معاملتهم . ففى طبيعته أن يكل أمر الناس فى سرائرهم الى ربهم . وفي طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته . ويحمي من لا يتبع سنته . وان كان في عمى من الجهالة وخبل من الضلالة . أفترى انه يصعب عليه بعد ذلك ان يحتمل العلم والعلماء ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ممن ينفق عمره في تقرير حقيقة . أو كشف غامض أو تبين طريقة .؟ كلا ثم كلا . فمن بحث ونقب . وسبر ونقر . أوشق الارض . أو ارتقى الى السماء . فهو في أمن من أن يعرض الاسلام له فى شيء من عمله الا ان يحدث شغباً . أو يفسد

ادبا فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد . واصلاح الفاسد . بسماح من الدين .

(الاصل السابع للاسلام مودة المخالفين في العقيدة) (١)

المصاهرة — أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية نصرانية كانت أو يهودية وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها . والقيام بفروض عبادتها . والذهاب الى كنيستها أو بيعتها . وهى منه بمنزلة البعض من الكل . والزم له من الظل . وصاحبته فى العز والذل . والترحال والحل . بهجة قلبه . وريحانة نفسه . وأميرة بيته . وأم بناته وبنيه . تتصرف فيهم كما تتصرف فيه . لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى . « ومِن آياتِه أن جَعَلَ لكم من أنفسِكم أزوَاجاً لِتسكنوا اليهَا وجعَلَ بَينَكم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ان فِي ذلِكَ لآياتٍ لقوم يَتفَكّرُونَ » فلها حظها من المودة . ونصيبها من الرحمة . وهى

---

(١) هذا الاصل الاسلامي هو ضد الاصل السادس للنصرانية (راجع ٣١)

كما هي • وهو يسكن اليها كما تسكن اليه • وهو لباس لها كما أنها لباس له أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ماعهد في طبيعة البشر وما أحلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم • وذوي القربى لوالدتهم • أيغيب عنك مايستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذى لم يعهد عندمن سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه [1]

ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين

---

(١) المنار — يقول بعض النصاري • اذا كان الاسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلم البشر التآلف والتعاطف ، التباين فى العقيدة والتخالف ، فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض • والجواب أن الرجال قوامون على النساء لانهم أقوى منهن فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوى يفرق دينه بينه وبين زوجته الضعيفة ويأمره ببغضها وببغض أولاده ووالديه اذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة • أباح الاسلام ذلك لمن يعمل بما أمر من العدل والرحمة وهو المسلم .

[illegible]امله بين العبد وربه . والعقيدة طور من أطوار القلوب .
[illegible]ب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب . فهو الذي يحاسب
[illegible]ليها . أما المخلوق فلا تطول يده اليها . وغاية ما يكون من
[illegible]عارف بالحق أن ينبه الغافل . ويعلم الجاهل . وينصح للغاوي
[illegible]يرشد الضال . لا يكفر في ذلك نعمة العشير . ولا يسلك
[illegible]ه مسالك التعسير . ولا يقطع أمل النصير . ولا يخالف سنة
[illegible]الوفاء . ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء .

ماذا ترى فى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر
[illegible]لعقلي وذهبت مذهباً يخالف مذهب زوجها . أفينقص ذلك
[illegible]من مودته لها . أو يضعف من شعور الرحمة التي أفاضها الله
[illegible]بينه وبينها . فاذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبة
[illegible]والنصرة لمن يخالفه في عقيدته . ودينه وملته . ويألف مخالطته
[illegible]وعشرته . وولايته ونصرته . أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره
[illegible]من يعمل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه الى اكتشاف سر أو
[illegible]تقرير أصل في علم أو قاعدة لصناعة إن كان قد يخالف ظاهراً
[illegible]مما يعتقد . أو يميل الى رأي غير الذي يجد . أفلا يسع هذا ما
[illegible]يسع المجاهر بالخلاف . وهو معه على ما رأيت من الائتلاف .؟؟

لو ذهبت أعد مافى طبيعة الاسلام من عناصر وأر
كلها تؤلف مزاج الكرم ، وتكوّن حقيقة المسامحة مع ال
لأطلت على القارئ أكثر مما أطلت . ولهذا أرى م
الواجب عليّ أن أختم القول بذكر أصل أشرت اليه و
غنى لما نحن فيه عن ذكره

الاصل الثامن للاسلام الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة (١)

الصحة — الحياة فى الاسلام مقدمة على الدين . أواه
الحنيفية السمحة ان كانت تختطف العبد الى ربه ، وتملأ قل
من رهبه ، وتفعم أمله من رغبه ؟ فهى مع ذلك لاتأخذه ع
كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به . ولا توجب عليه تقشف
الزهادة . ولا تجشمه فى ترك اللذات مافوق المادة .

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل (بع م
تملك واتبعني) ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من
ماله (الثلث والثلث كثير انك ان تذر ورثتك أغنياء خير
من أن تدعهم عالة يتكففون الناس) (٢)

---

(١) هذا الاصل ضد الاصل ٣ للنصرانية (راجع ص ٢٧).

(٢) المنار — يشير الكاتب الى حديث سعد بن أبي وقاص رضو

الرخص — فرض الصوم على المؤمنين لكن اذا خشي
المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه بل قد يجب
اذا غلب على الظن الضرر فيه • الوضوء والغسل من شروط
صحة الصلاة الا اذا خشي منه الضرر أو عرضت مشقة في
تحصيل الماء • القيام مما لاتصح الصلاة الا به الا اذا اصابت
المصلي مشقة فيه فيسقط ويصلي قاعداً • السعي الى الجمعة
واجب الا اذا كان وحل غزير او مطر كثير او مايوجب تعباً
ومشقة فيسقط • وهكذا تجد القاعدة قد عمت : (صحة
الابدان مقدمة على صحة الأديان (فترى الدين قد راعي في
احكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح

الزينة والطيبات — اباح الاسلام لاهله التجمل بأنواع الزينة
والتوسع في التمتع بالمشتهيات على شريطة القصد والاعتدال

عنه وقد رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الاربعة • كان سعد
مريضاً في حجة الوداع فعاده النبي صلى الله عليه وسلم وكان عازماً
على الصدقة بثلثي ماله وفي رواية بماله كله فسأله النبي عما ترك لولده
فقال هم أغنياء • وفي رواية الجماعة انه لم يكن له الا بنت • وفي رواية
لاحمد والنسائي انه أمره أولا بأن يتصدق بالعشر • والحاصل انه مازال
يراجعه حتي رضي صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرم الزيادة بالحديث

وحسن النية . والوقوف عند الحدود الشرعية . والمحافظة على صفات الرجولية . جاء في الكتاب العزيز (يابني آدمَ خذوا زينتكم عند كل مسجدٍ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحبُّ المسرفين . قل من حرّم زينةَ اللهِ التي اخرج لعبادهِ والطيباتِ من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياةِ الدنيا خالصةً يوم القيامةَ كذلك نفصّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمون . قل انما حرّم ربي الفواحش ماظهرَ منها وما بطنَ والاثم والبغيَ بغيرِ الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) (سورة الاعراف)

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي يذكرنا بها فضله . ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره . كما قال . (والانعامَ خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحملُ أثقالكم الى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الانفس ان ربكم لرؤفٌ رحيمٌ . والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً

يخلقُ مالا تعلمون) ثم قال (وهو الذى سخّر البحر لتأ كلوا منه لحما طرياً وتستخرِجوا منهُ حليةً تلبسونها وترى الفلكَ مواخر فيهِ ولتبتغوا مِنْ فضلهِ ولعلكُمْ تشكرُون) (سورة النحل)

الاقتصاد — ووضع قانونا للانفاق وحفظ المال في قوله (إن المبذّرِينَ كانوا إخوانَ الشيّاطينِ وكانَ الشّيطانُ لربهِ كفوراً . ولا تجعَلْ يدكَ مغلولةً الى عنقكَ ولا تبسطها كلَّ البسْطِ فتقعدَ ملوما محسوراً) (سورة الاسراء)

النهي عن الغلو في الدين — وخشي على المؤمن أن يغلو فى طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا اذ قال : (وابتَغ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرة ولاتنسَ نصيبكَ من الدنيا وأحسنْ كما أحسنَ الله اليك ولاتبغ الفساد فى الأرض إنّ اللهَ لايحبُّ المفسدِين) (سورة القصص)

فترى أن الاسلام لم يبخس الحواس حقها . كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها . فهو الذي جمع للانسان أجزاء حقيقته

واعتبره حيوانا ناطقاً لا جسمانيا صرفا • ولا ملكوتيا بحتا • جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة • واستبقاه من أهل هذا العالم الجسداني • كما دعاه الى أن يطلب مقامه الروحاني • أليس يكون بذلك وبما بينه في قوله : (هو الذى خلق لكمْ مافى الأرضِ جميعاً) قد أطلق القيد عن قواه • لتصل من رفه الحياة (مع القصد) الى منتهاه • والنفوس مطبوعة على التنافس قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيراً • أو تجده لذيذاً أو تظنه نافعا

وليس فى الغريزة الانسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود • أو ينتهي بها السعي الى غاية لا مطَّلعَ للرغبة وراءها بل خصها الله بالمكنة من الرقيّ فى أطوار الكمال من جميع وجوهه الى ماشاء الله أن ترقى بدون حد معروف

(نتيجة) — فاذا جمع سائق الانفس ومزجيها • ومرشدها وهاديها • بين شاحذين شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا • وشاحذ الرغبة في النعيم الدائم فى الآخرة • فقد جمع لها كل مايسمو بها عن الرضاء فى الدنيا بالدون • وفى الآخرة بعذاب الهون • فترى كل نفس تمضي مع استمدادها • بشهامة فؤادها • مضاء

الزميع [1] لاتخشي العثرة بالوعيد . ولا تقعد عن مطالبها قعد الرعديد [2] فتطلب منافعها . من هذا الكون الذى وجدت فيه ووجد لها . فتسير في مناكب الارض . ولا تكتفى عن الكل بالبعض . وتبحث في تربها . ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها . ولا يحجبها ظهرها . عن مد يدها الى ما فى جوفها ولا تجد ما يصدها عن النظر فى الهوا . والبحث فى الماء والاهتداء بنجوم السماء . بعد معرفة مواقعها . وحركاتها فى مداراتها . واستقامتها وانحرافها . وظهورها وخنوسها وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر . أو الولوج فى باب من أبواب العلم . ينطلق الى حيث يبلغ به استعداده اما للنجاة من ضرورة واما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة . لايجد من نواهي الدين ما يصده عن مطلب . ولا يكف يده عن تناول رغيبة . أين هذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص الا فى مجافاة هذا العالم ولذائذه ويجد ان الغنى والثروة من الحجب التى لا تخرق تحول بينه وبين ملكوت السموات

---

(١) هو الحازم القوي العزيمة يزمع على الامر فيمضى فيه ولا ينثني والجيد الرأي المقدام (٢) الرعديد الجبان الكثير الارتعاد

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره . اذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره . لينفذ من ظاهره الى سره . ويقف على قوانينه وشرائعه . ويستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه . كيف يشكر الله اذا توانى فى ذلك وقد أرشده الله في كتابه وبسنة نبيه الى ان عالمه إنما خلق لاجله وقد وضعه الله تحت تصرف عقله . انظر الى لطف الاشارة في الآيه المتقدمة (قل من حرم زينة الله) الخ حيث قال : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) فاهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم . ويجمل به هيأتهم . ويجلى به زينتهم .

المسلمون مسوقون بنابل دينهم الى طلب مايكسبهم الرفعة والسؤدد . والعزة والمجد ولا يرضيهم من ذلك مادون الغاية ، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم ، فهم محفوزون أشد الحفز الي طلب العلم وتلمسه في كل مكان . وتلقيه من أية شفة وأي لسان . فاذا لاقاهم العالم في أى سبيل . أو عثروا به فى أي جيل . أو ظهر لهم من أي قبيل . هشوا له وبشوا

ونصبوا اليه وكمشوا [1] وشدوا به أواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ماتكون عقيدته ، اذا نفعتهم حكمته (الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها) [2] ألم يأتهم عن ربهم : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا اولوا الالباب) ألم يسمعوا في وصفهم قوله : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ذلك شأن المسلم مع العلم اذا كان مسلماً حقاً . وذلك ماتنجر اليه طبيعة دينه . وحديث اطلبوا العلم ولو بالصين [3] ان كان في سند لفظه الى النبي صلى الله عليه وسلم مقال فسند معناه

---

(١) المنار — لعل نصبوا من نصب السير وهو ان يسير طول يومه سيرا ليناه وكمش الرجل كان سريعاً ماضياً . وكمش كماشة شجع واسرع

(٢) حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة ورواه غيره بألفاظ اخرى والمعنى واحد . ومنه رواية موقوفة على ابن عمر رضي الله عنهما (خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت) وفي رواية عن علي كرم الله وجهه (الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق (٣) رواه ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الايمان والمدخل وابن عبد البر في العلم والخطيب في الرحلة والديلمي في مسند الفردوس وغيرهم وله طرق كثيرة يقوى بعضها بعضاً

متواتر فانه سند القرآن نفسه فان الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص . فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو في الصين ولم يكن في الصين مسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم

لا شيء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه وان كان في أول أمره مطلوبا لغيره مثل العلم . تطلب العلم أولا لحاجتك اليه في تقويم معيشة . أو ترفيه حال . أو دفاع عن نفس وملة ثم لا تلبث اذا أوغلت فيه أن تجد اللذه في العلم نفسه فتصير اللذة بتحصيله والوصول الى دقائقه غاية تقصد بنفسها . وتضمحل فيها كل غاية سواها . وعلة ذلك ظاهرة فان العلم مسرح نظر العقل والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية بل هى أفضلها على الحقيقة قد وضع لها العليم الحكيم لذة كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة . ولست في حاجة الى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس فالحيوان يعرفها بله الانسان وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء عند الانسان ألذ من كشف المجهول . واحراز المعقول ، وقد سمح الاسلام للمسلم ان يتمتع في هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد

والاعتدال. أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح في مملكة العلم ليمتع عقله، كما يسيح فى بسيط الارض ليكسب رزقه ويقيت أهله، على ان العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أوحاجياتها كما ذكرنا فاذا طفق يستنبط ماؤه للضرورة. ويستجلى سناءه للحاجه. فلا يلبث ان يصيرهو حاجة نفسه وشاغله عن حاجات حسه. حتى يدخل معه فى رمسه. كما وقع لكثير من المسلمين. قال امام جليل من أئمتهم (طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله)

(نتائج هذه الاصول وآثارها في المسلمين)

الى ما أفضت طبيعة الاسلام بالمسلمين؟ وماذا كان أثرها فى اسلافهم الاولين؟ - فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالرفيق الاعلى بست سنوات في رواية وتسع سنوات فى رواية أخرى والاسلام في طلوع فجره وتفتح نوره، فكان من بقايا ماتركت الازمان الاولى رجل مسيحى من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوى كان في بدء أمره ملاحا يعبر الناس بسفينته وكان يميل الي العلم بطبيعته فاذا ركب

معه بعض أهل العلم أصغي الى مذاكرتهم. ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن اربعين سنة فبلغ فيه مالم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم وقد أحسن من العلم فنوناً كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته

يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين ان عمرو ابن العاص سمع به فاستدناه منه واكرمه لعلمه ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتي قال أحد فلاسفة الغربيين: (ان المحبة التي نشأت بين عمرو ابن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى ترينا مبلغ ما يسموا اليه العقل العربي من الافكار الحرة والرأي العالي . بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدى أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والادبية من كل نوع)

خالط المسلمون أهل فارس وسوريا وسواد العراق وأدخلوهم في اعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية في سوريا ولم تغير بالعربية الا بعد عشرات من السنين فاحتكمت الافكار بالافكار وأفضت سماحة الدين الى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع

اشتغال المسلمين بالعلوم الادبية ثم العقلية

وبعد عشرين سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة عليّ ابن أبي طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس الى ذلك . وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالا مع مايدعوهم اليه دينهم وتنبهم لطلبه شريعتهم وان كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت نارها في اطراف بلادهم للنزاع في أمر الخليفة قد شغلتهم عن كل شيء من مصالحهم فانها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة . فالبراعة في الآداب من علم بوقائع العرب وتاريخهم وقول الشعر وانشاء البليغ من النثر قد بلغت في خلافة بني أمية مبلغاً لم تبلغه أمة قط في مثل مدتها . وكان الخلفاء الامويون يعلون منزلتها ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير . ثم ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر دولتهم وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الاول .

نقل الخلفاء الامويون دار الخلافة من المدينة الى الشام

ولم يسيروا في الزهد سيرة الخلفاء الراشدين فقد جاء رسول من الفرس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلما سئل عنه دل عليه فذهب اليه فاذا هو نائم على الارض تحت نخل البقيع بين الفقراء وجاءت رسل الملوك الى معاوية رحمه الله فاذا هو فى قصر مشيد محلي البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية مزين بالجنات والرياض، وينابيع الماء مفروش بأحسن الفرش يرى الناظر فيه أنفس الاثاث والرياش . ولم يكن معاوية في ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه وانما تناول مباحا وتمتع برخصة آتاه الله إياها ولا يخفي ما في ذلك من ترويج فنون الابداع في الصنعة على اختلاف ضروبها

اشتغالهم بالعلوم الكوفية في أوائل القرن الثاني

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت الدولة لبني العباس واستقرت في نصابها من آل بيت النبي قرب نهاية الثلث الاول من القرن الثاني للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضاً . وأخذ المنصور ينشيء المدارس للطب والشريعة وكان قد جعل من زمنه ماينفقه في تعلم العلوم

الفلكية وأكمل حفيده الرشيد ماشرع فيه وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها . وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم الى أوج قوتها ، ونالت به أكبر ثروتها ، ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مئة بعير . وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة ، فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس في الرياضة السماوية فأمر المأمون في الحال بترجمته وسموه بالمجسطي . ولا يسهل على كاتب إحصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها في دولة بني العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم

انشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دول الاسلام تعتني بديار الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها حتى كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مئة الف مجلد منها ستة آلاف في الطب والفلك لا غير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة . وكان فيها كرتان سماويتان إحداهما من الفضة يقال أن صانعها بطليموس نفسه

وإنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار . والثانية من البرنز ومكتبة الخلفاء في أسبانيا بلغ مافيها ست مئة ألف مجلد . وكان فهرستها أربعة وأربعين مجلداً . وقد حققوا أنه كان في أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية . وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه . يقال ان سلطان بخارى دعا طبيباً أندلسياً ليزوره فأجابه ان ذلك لا يمكنه لأن كتبه تحتاج الى أربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغني عنها كلها وكان حنين ابن اسحق النسطوري في بغداد ممن جعل في داره مكتبة عامة يفد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه

انشاؤهم المدارس للعلوم وكيفية التدريس

غطي بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس . نقول « على سعتها » لانها زادت في السعة على المملكة الرومانية بكثير . فكنت تجد المدارس في كل الاقطار — في المغول — في التتار من جهة المشرق . في مراكش . في فاس . في

أسبانيا من جهة المغرب .

كانت طريقة الاساتذة في التدريس أن كل مدرس يعد درسه ويكتب فى الموضوع الذي يلقي الدرس فيه مايريد أن يكتب ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالي تنشر بين الناس في كل علم . وهنا نبادر الى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على أن جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب غير أن مؤرخا واحداً رأيته ذكرا أنه قد وضع قانون في بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه أن لا ينشر منها شيء الا باذن . على أني لا أعلم شيئا من ذلك وقع فى الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام إسلاما

نرجع الى الكلام في المدارس الاسلامية . يقول جبون في كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق وفي الغرب : « ان ولاة الاقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء ، في إعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه . وكان عن ذلك أن ذوق العلم

ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشرا في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . أنفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مئتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد وجعل لها من الريع يصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار في السنة وكان الذين يغتذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناع فيها غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغني يكتفي بمال أبيه والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة) اه

انقسمت الممالك الاسلامية في زمن من الأزمان الى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع كان العباسيون في آسيا (الشرق) والامويون في الاندلس من أوربا (الغرب) والفاطميون في مصر من أفريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصراً على الملك والسلطان ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والادب وكان مرصد سمرقند قائماً في ناحية المشرق يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الافلاك ، ومرصد جيرالد في الاندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الادراك ،

جميع المدارس في البلاد الاسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية من مدرسة للطب في القاهرة وكان من أشد النظامات وأدقها ، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته الا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز فى الامتحان على شدته ، وأول مدرسة طبية أنشئت في قارة أوربا على هـذا النظام المحكم هى التى أنشأها العرب فى ساليرن من بلاد ايطاليا وأول مرصد فلكي أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب فى أشبيلية من بلاد أسبانيا

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الادبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والاساطير الخيالية ، فى الأحوال الاجتماعية ، وابتدأوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية ، وأخذوا ينقلون كتب الاولين من تلك الالسن الى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة ، وكان مترجوهم فى أول الامر مسيحيين وصابئين وغيرهم ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم فى اللسانين وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها ، وينقلوها الى لسانهم على حسب مايصل اليه علمهم فيها ، وكان المعلمون لأبناء العظماء فى أول الامر

من المسيحيين واليهود ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين ، كل يعلم العلم الذي عرف هو بالبراعة فيه

علوم العرب واكتشافاتها

كان علم العرب فى أول الامر يونانياً لكنه لم يلبث كذلك الا دون قرن واحد ثم صار عربياً ، ولم يرض العربي أن يكون تلميذاً لارسطو وأفلاطون أواقليدس أو بطليموس زمناً طويلاً كما بقي الاوربي كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحي

قالوا ان باكون هوأهل من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية أو أقامها مقام الرواية عن الاساتذة والتمسك بآراء المصنفين وأطلق العلم من رق التقليد : ذلك حرب فى أوربا أما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها فى أواخر القرن الثاني من الهجرة ، أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربيات وأن لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم مالم تؤيدها التجربة حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن

أحد فلاسفة الاوربيين ، أن القاعدة عند العرب هي (جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا) وعند الاوربي الى مابعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي (اقرأ في الكتب وكرر مايقول الاساتذة تكن عالما) . (فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقب من سوء المآل)

قال ديلامبر في تاريخ علم الهيأة : (اذا عددت في اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين امكنك ان تعد في العرب عددا كبيراً غير محصور) . أما في الكيمياء فلا يمكنك ان تعد مجربا واحداً عند اليونانيين ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون والرياضية من الآلات المنطقية ، يستعملونها في الاستدلال على القضايا النظرية ، وهي من أصدق الادلة في الايصال الى المجهولات كما هو معروف

العرب هم من أول استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام أهم الزمن وهو أول من اتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض . وقد اكتشفوا قوانين لثقل الاجسام جامدها ومائعها

حتي وضعوا لها جداول في غاية الدقة والصحة كما وضعوا جداول للارصاد الفلكية وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في سمر قند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين الى مايقرب من اكتشاف الجاذبية

لايمكنني في مقالي هذا ان اعدّ ما اكتشف العرب ولا مازادوه في العلوم على اختلاف أنواعها فذلك يحتاج الى سفر كبير . وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الاوربيين ومؤرخيهم . وربما يتيسر لابناء الامة العربية أن ينشروا ذلك لاخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه اسلافهم .[1] ولكنني أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين [2]:(لاتأخذنا الدهشة أحيانا عند ماننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد انها لم تولد الا في زماننا كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال أنواعها فان هذا الرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم وكانوا يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية

---

(١) المنار . قد نشرنا جملة صالحة من ذلك في مقالات (مدنية العرب) في المجلد الثالث (٢) هو الفيلسوف درابر الاميركاني

والمعادن والاصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقي المعادن في أشكالها . قال الخازني : اذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء أن الذهب تد تقلب في الاشكال المختلفة حتي صار ذهباً ظن من هذا أنه مر في صور معادن أخرى فكان رصاصاً ثم قصديراً ثم صفراً ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهبا ولا يعلم أن الفلاسفة اذا قالوا ذلك فانما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم في الانسان انه وصل الى حالته الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقي وهم لم يعنوا بقولهم هذا انه تقلب في صور الانواع المختلفة كأن كان ثوراً ثم حماراً ثم فرساً ثم قرداً ثم صار بعد ذلك انسانا)اهـ

ويقول الفيلسوف كوستاف لوبون : (ان العرب أول من علم العالم كيف تنفق حرية الفكر مع استقامة الدين)

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب في حرية الرأي الى نقض أصل الدين وقال ان الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وانما الذي يبقى هي أرواح الانواع . فان هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان بقاء الانواع دون الاشخاص فانه قال كما قال أرسطو وغيره : ان الاشخاص توجد وتفنى وأما الانواع فهي باقية

لا تزول. وهذا باب آخر يغاير بالمرة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام في بيان رأيه من وجه آخر [1]) كما أخطأوا في قولهم عنه انه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر في صوره والكل يرجع اليه بمعنى انه يفنى في ذاته ولا يبقى في العالم باق آخر وهو يقرب من قولهم السابق . فان ابن رشد كان مسلما وكان يعرف أن الاسلام لا ينافي العلم وانما ينافي هذا الضرب من الوهم الذي لم يسقط فيه أحد الا من عثرة في طريق العلم أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأى أفاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التي بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأي اليه كما سبق بيانه [2] ولكني لا أنكر نسبته لو نسب الى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلامذة ابن رشد فان فى كلامه مايدل على ذلك

ويقول فيلسوف آخر : (ان العلوم التى تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر مقبورة بين جدران المكاتب أومخزونة في بعض الرؤس كانها أحجار ثمينة في بعض الخزائن لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها ـ صار

---

(١) و(٢) قدسبق ذلك فى المقالة الاولى التي رد بها الكاتب على الجامعة

عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الارواح ، وروح الثرة ، وقوام الصنعة ، ومهمازاً للقوى البشرية يسوقها الى كمالها الذي أعدت له • وليس فى الاوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر ان الفضل — فى اخراج أوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم وفي تعليمها كيف تنظر وكيف تتفكر وفي معرفتها ان التجربة والمشاهدة هما الاصلان اللذان يبنى عليهما العلم — انما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوهاالیهم وأدخلوها من اسبانيا وجنوب إيتاليا وفرنسا عليهم • وكان من حظ العلم العربي والادب المحمدي عند مادخلا الى ايتاليا ان البابا كان غائباً لان كرسيه كان انتقل الى فرنسا في أفنيون نحو سبعين سنة فدب العلم الى شمال ايتاليا واستقر به القرار هناك • ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا في القرن الثاني عشر وقد رصت بالبلاط على نحو مارصت به مدن اسبانيا) اه

ويقول آخر : (لاأدري كيف أعطانا الاسلام في مدة قرنين عدداً من الفلكيين يطول سرد أفراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثنى عشر قرناً فى أوربا ولم تمنحنا فلكياً واحداً)

هذا النماء والزكاء العلمي لم يكن خاصاً بطائفة دون طائفة بل كان الناس في التمكن من تناوله سواء . وانما كان التفاضل بالجد والعمل . والفضل في ذلك كله لحلم الخلفاء وعمالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته . قال بعض فلاسفة الغربيين قولا يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : (ان شعوب الارض لم ترقط فاتحاً بلغ من الحلم هـذا المبلغ (يريد فاتحي الاسلام على اختلافهم) ولا ديناً بلغ في لينه ولطفه هذا الحد

(أخذ الخلفاء والامراء ، بيد العلم والعلماء)

ان الخلفاء الذين يقال عنهم انهم رؤساء دين وحكام سياسة مما كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها . كانوا العالمين العاملين . كان خليفة كالمأمون يضطهد أحيانا أعداء الفلسفة وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا في سجنه الشهور أو السنين لانهم كانوا يعادون الفلسفة ظناً منهم ان منها ما يعدوا على الدين فيفسده . هل رأيت في غير الاسلام رئيساً دينياً يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة؟ لعلك لا تجده أبدا

كان أهل العلم والادب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والامراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم

وسأضرب المثل بالشيخ أبي العلاء المعري لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة : يذكر على بن يوسف القفطي أن صالح بن مرداس صاحب حلب خرج الى المعرة وقد عصى أهلها عليه فنازلها وشرع في حصارها ورماها بالمنجنيق فلما أحس أهلها بالغلب سعوا إلى أبى العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الأمير أطال الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسه وخشن جده ، وكالنهار البالغ قاظ وسطه وطاب برده ، (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فقال له صالح قد وهبتها لك . ثم قال له أنشدنا شيئا من شعرك لترويه فأنشده على البديهة أبياتا فيه فترحل صالح . فانظر كيف وهب الامير بلداً عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف . ولو ذكرت مانال العلماء والفلاسفة عند الامراء والخلفاء لطال بى المقال أكثر مما طال وفيما سبق كفاية لمكتف .

إزالة شبهتين وبيان حقيقة الاضطهاد

قد يتوهم قوم أن الاضطهاد قد يظهر فى مقت العامة وخلقهم بما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر وهمس

بعضهم في آذان بعض وتغامزهم على أهل الفضل ولمزهم إياهم بالالقاب بل واحتقارهم فى بعض الاحيان وهـذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير . وهو خطأ ظاهر لان هذا النوع مما يكرم أهل العلم لاتخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها فان القائمين على عقيدة الـكاثوليك الى اليوم في أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة ويكتبون ما يوهن قواعدها وقـد يخلق عليهم أحزاب الـكاثوليك مالم يقولوه ويرون أن النظر فى كتبهم لايجوز في شريعة الدين . ونحن لانرتاب فى أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ولكنه ليس من الاضطهاد فى شيء وإنما هى نفرة الانسان مما لايعرف مع ترك صاحبه وشأنه يمضى في سبيله الى حيث يشاء

يقول آخرون : ان التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخـذه السيف لغلوه في فكره فلم يترك له من الحرية مايتمتـع به الى منتهى مايبلغ به وليس يصح أن ينكر ماصنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة

وأقول : ان كثيراً من الغلو اذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله[1] فتضطر السياسة للدخول فى الامر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر لالانه تفكر ولكن لانه لم يرد ان يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع ان غيره في غني عما يراه هو حقا له وتخشي الفتنة اذا استمر مدعي الحرية فى غلوائه فلهذا يري حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب ان ينفى منهم المجتمع صونا له عما يزعزع أركانه . ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة وان لاينشأ شيء منها الا باذن من الحكومة ومن لم يخضع لذلك تحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح . وقد ينفى من البلاد كما نفي كثيرون فى سنين سابقة ؛ ولكن هل

---

(١) المنار — ذكر امام الحرمين في كتابه (الشامل) في أصول الدين نه كان بين الحلاج والجنابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة وان ذلك هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج

يسمى هذا اضطهاداً ؟ كلا ولكن الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الاصلاح بعدها في أول نشأتهم

ماذا يقول القائلون ؟ ان التعليم عند المسلمين كان غريبا أمره ، يكاد يكون خفيا سره ، مسجداً ومدرسة تابعة لمسجد يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوى والمتأدب والفيلسوف والفلكي والمهندس ! ينتقل الطالب من بين يدي الفقيه ليجلس بين يدى الفيلسوف ومن مجلس الحديث الى مجلس الادب واذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الاقناع والالزام وسقطت قيمة الغلو في التعبير وأخذ التسامح بينهم مأخذه . كان عمرو ابن عبيد رئيس المعتزله وأشدهم صلابة في أصول مذهبه ؟ ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخارى صاحب الصحيح وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذى منزلة عنده حتي قال له يوما وهو خارج من بين يديه (رميت لكل الناس حباً فلقطوا الا أباك ياعمرو ابن عبيد) فانظر كيف كان لامام من أئمة السنة أن يصل سنده في الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى فى ذلك بأسا

اذا عد عاد بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين فما عليه الا أن ينظر في أحوالهم فيقف لاول وهلة على أن الذي أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين وأن ليست الغيرة عليه هى الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم . وانما تجد الحسد هو العامل الأول فى ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الاذى يقع الا على قاضي قضاة (كابن رشد ورجوع الحاكم الى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذى نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لايذاء الفلاسفة يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لاهلاك بعضهم بعضا كما يشهد به العيان ويحكي لنا التاريخ فليس هذا كذلك معدوداً من معنى اضطهاد الدين للفلسفة لان التحاسد أكثر مايقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه . وانما ذلك الاضطهاد هو الذي يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة أو ظن المخالفة للدين في شيء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع في الاسلام اللهم الا أن يكون حادث لم يصل الينا

هذه طبيعة الدين الاسلامي عرضت عليك في أهمّ عناصرها ومقوّمات مزاجها . وهذا كان أثرها في العالم الشرقى والغربى. وهذه سمة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك المخالفين أن يحتموا به متي رضوا بأن يستظلوا بظله .هل في هذا خفاء على ناظر . وهل يرضي لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ، أفلا يبسم الاسلام عجبا وهو فى أشد الكرب لعقوق أبنائه، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ان لم يحسبه فى أحبائه ، عند مايراه يسدد سهمه اليه. ويجور كما يجور الجائرون فى حكمه عليه ، ؟ ؟

الاسلام اليوم

أو الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام

المقال الرابع لذلك الامام الحكيم

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا أن طبيعة الاسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقي وأنه لم يقع من المسلمين الاولين تعذيب ولا احراق ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومي العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء

العلوم العقلية ، والفنون المصرية ، أوليس الناس تبعاً لهم ، أفلا يكون للاديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ ألم يسمع بأن رجلا في بلاد اسلامية غير البلاد المصرية كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ماذهب اليه أئمة المسلمين كافة . ومقالا بين فيه رأيه في مذهب الصوفية وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزئ به أو مايقرب من هذا وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله . فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الاثواب العباعب ، وقالوا انه مرق من الدين ، أوجاء بالافك المبين ، ثم رفع أمره الى الوالى فقبض عليه وألقاه في السجن ، فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه بين يدي عادل لايجور ، ومهيمن على الحق لايحيف ، الخ ما يقال في الشكوى . فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله فقد صدر الامر هناك أيضاً بسجنه ولم يعف عنه إلا بعد أشهر مع أنه لم يقل الا مايتفق مع أصول الدين ولا ينكره القارئ والكاتب ، ولا الآكل والشارب

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي (والد السنوسي

صاحب الجغبوب) كتب كتابا في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية وجاء في كتاب له مايدل على دعواه أنه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم في علماء الجامع الازهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترئ الاستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة . ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة . وارتكاب الجريمة باسم الشريعة . هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل أن يلاقيه الاستاذ المالكى .

هل غاب عن الاذهان ماكان ينشر في الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الازهر من المقالات الطويلة الاذيال الواسعة الأردان فى استهجان إدخال علم تقويم البلدان (الجغرافيا) بين العلوم التي يتلقاها طلبة الجامع الأزهر ؟ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وأنه إنما يريد الغضّ من

علوم الدين . أم لم تنشر في العام الماضي فصول باقلام بعضهم تشير الى الطعن في عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به مع انه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنه؟

ألم تحمل الينا الرواة ماعند علماء الافغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ماورثوا عن آبائهم الأقربين ، وإقامة الحرب على كل من حاول ان يزحزحهم أصبعا عما كان عليه سلفهم ، وان كان في البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم في حكومة المغرب من الغلو في التعصب والمعاقبة بقطع بعض الاعضاء فى شرب الدخان أو بالقتل فى كلمة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون.

ثم ألا يتخيل المؤمل انه يسمع من جوف المستقبل صخبا ولجبا ، وضوضاء وجلبة وهيهات مضطربة اذا قيل انه ينبغي لطلبة الازهر ان يدرسوا طرفا من مبادئ الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي ؟ ألا تقوم قيامة المتقين، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين . : هذا عدوان على الدين . هذا توهين لعقده المتين . هذا تغرير بأهله المساكين ولا يزالون يشيدون بهذا الى ان لا يبقى شيء عرف له اسم فى اللغة الا

ألصقوه بهذه البدعة في زعمهم

هل هـذه الحال جديدة على المسلمين حتى يقال انهـا عارض عرض عليهم . أو مرض من الامراض الوافدة اليهم؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن ان هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الامم خصوصا عند ما يجد الوحدة في الصفات . والشمول في جميع الاعتبارات . فلو أخذ مسلما من شاطئ الاطلانطيق وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي : (انا وجـدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه وان نطق به الكتاب واجتمعت عليه الآثار . اللهم الا فئة زعمت انهـا نفضت غبار التقليد وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الاحاديث لتفهم أحكام الله منها ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صـدراً من المقلدين وان انكرت كثيراً من البدع ونحت عن الدين كثيراً مما أضيف اليه وليس منه . فانها ترى وجوب الاخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به بدون التفات الى ما تقتضيه الاصول التي

قام عليها الدين . واليها كانت الدعوة . ولاجلها منحت النبوة .
فلم يكونوا للعلم أولياء . ولا للمدنية السليمة أحباء .

هل يمكن ان ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات
المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الاراء في فهمها واذا
عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأى
فيها أحجموا عن إبداء الرأي واجتهدوا فى تحويلها عن حقيقتها
الى ان تتفق مع قول معروف في كتاب من الكتب حتى لقد
جاء طالب علم من بلد من بلاد الدولة العثمانية وأراد الالتحاق
بأحد الاروقة في الجامع الازهر فوقع الشك هل بلده مما
لاهله استحقاق في ذلك الرواق على حسب نص الواقف .
فقال قائل لشيخ الرواق : ان كتب تقويم البلد أن تشهد بأن
البلد داخل في شرط الواقف . فقال : انى لا أقنع بما في تلك
الكتب وانما الذى يصح ان آخذ به هو أن يكون فقيه (ممن
مات) قال ان هذا البلد من قطر كذا وهو الذي وقف الواقف
على أهله . واذا قيل لاحدهم : ان الائمة انفسهم لم يعينوا
مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولا لبيان مايحويه كل قطر
وبيان الحدود التي ينتهى اليها وان أصول ديننا تسمح لنا بان

تأخذ بأقوال العلماء فى هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الاخبار وما أشبه ذلك من البديهات قال : انما أريد نصا فقهيا. لا دليلا عقليا.

واذا قيل لهم . اختلت الشؤون . وفسدت الملكات والظنون . وساءت أعمال الناس. وضلت عقائدهم . وخوت عباداتهم من روح الاخلاص. فوثب بعضهم على بعض بالشر وغالت أكثرهم أغوال الفقر . فتضعضعت القوة . واخترق السياج . وضاعت البيضة وانقلبت العزة ذلة . والهداية ضلة . وما كنتكم الحاجة . وألفتكم الضرورة . ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس . فهلا نبهكم ذلك الى البحث فى اسباب ما كان سلفكم عليه . ثم علل ماصرتم وصار الناس اليه . قالوا . ذلك ليس الينا . ولا فرضه الله علينا . وانما هو للحكام ينظرون فيه ويبحثون عن وسائل تلافيه . فان لم يفعلوا ولن يفعلوا فذلك لأنه آخر الزمان وقد ورد فى الاخبار مايدل على انه كائن لامحالة وان الاسلام لابد ان يرفع من الارض ولا تقوم القيامة الا على لكع ابن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الامل . ولا تدع فى نفس حركة الى عمل

رأي رنان في الاسلام : هـذا الجمود ـ الذي لو أردنا بيان ما امتد اليه من طيات الافكار وثنيات الوجدان لكتبنا فيه كتابا ـ هو الذي حمل الموسيو رنان الفيلسوف الفرنسي المشهور أن يقول في عرض كلام له في تساهل المذاهب الدينية مع العلم نقلته عنه الجامعة : « على أنى أخشى أن يثبت الدين الاسلامي وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد ولكني أعرف أن في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآدات الدين الاسلامي القديمة وفي بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة تدل على فكر واسع وعقل ميال الى المسالمة . الا أنى أخشى أن تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء فاذا اختنقت قضي على الدين الاسلامي . ذلك أنه من الثابت الآن أمران ـ الأول أن التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرة لأنها تصلح أن تكون وسيلة اليه . والثاني انه لايطيق أن تكون الأديان عثرة في سبيله . فعلى هذه الأديان أن تسالم وتلين والا كان موتها ضربة لازب » اه كلام رنان بتصرف لفظي قليل

فمن أين يكون هذا الجمود العام الذي سمح للطاعنين أن

يحكموا على الاسلام بأنه عثرة في طريق المسلمين يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحا في سعيهم . أو نجاحا في أعمالهم . من أين يكون هـذا الجمود ان لم يكن من طبيعة الدين ؟ ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث ان لم يكن ناشئاً من أصول الدين ؟ فان لم تسلم بأن هذا اضطهاد وان الاضطهاد من لوازم الدين الاسلامي فعليك أن تسلم بأنه عدواة للعلم أو اشمئزاز منه . أو استهجان له أو احتقار لشأنه . وأحد هذه الامور كاف اذا عم بين المسلمين في أن ينفر بهم عن كل مجد وأن يحرمهم كل نفع . وأن يحقق فيهم ما تنبأ به رنان وغيره فما قولك في هذا ؟ ؟

(الجواب)

أقول هذا كلام فيه شية من الحق . ولمعة من الصدق . أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين فان حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغيرة . وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد

فتنتشر عدواه فينتبه غافل آخر ويتبعه ثالث ثم ربما تسري العدوى من الدين الى غير الدين ـ الى آخر ما يكون من حرّيّة الفكر يعوذون بالله منها . فان شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فانا معك من الشاهدين أعوذ بالله من السياسة . ومن لفظ السياسة . ومن معنى السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة . ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة . ومن كل أرض تذكر فيها السياسة . ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة . ومن ساس ويسوس . وسائس ومسوس . يدلك على أن العقوبة سياسة أن الرجل كان يقول بقول السلف من اهل الدين . لا تقل إن هذه السياسة من الدين . فاني أشهد الله ورسله وملائكته وسلفنا أجمعين . ان هذه السياسة من أبعد الامور عن الدين . كأنها الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم . إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون .

جمود المسلمين وأسبابه

وأما ماوصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب الى الإسلام وقدرأيت صورة الاسلام في صفائها ونصوع بياضها ليس فيها ما يصح أن يكون أصلا يرجع اليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رنان) وغيره . وانما هى علة عرضت على المسلمين عند ما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الاسلام في أفئدتهم . وكان السبب في تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الاسلام من عقولهم هو السياسة كذلك هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن عبادة الهوى وإتباع خطوات الشيطان هو السياسة

لم اركالإسلام ديناً حفظ اصله . وخلط فيه اهله . ولا مثله سلطانا تفرق عنه جنده . وخفر عهده . وكفر وعيده ووعده . وخفي على الغافلين قصده . وإن وضح للناظرين رشده اكل الزمان اهله الاولين . وادال منهم خشارة من الآخرين . لاهم فهموه فأقاموه . ولاهم رحموه فتركوه . سواسية من الناس اتصلوا به . ووصلوا نسبهم بسببه . وقالوا نحن اهله وعشيرته وحماته وعصبته . وهم ليسوا منه فى شيء إلا كما يكون الجهل

من العلم . والطيش من الحلم . وأفن الراي من صحة الحكم .

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سبباً فيما صار اليه أهله . كان الاسلام ديناً عربياً ثم لحقه العلم فصار علماً عربياً بعد أن كان يونانيا . ثم أخطأ خليفة في السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا إلى ما كان يظنه خيراً له . ظن ان الجيش العربي قد يكون عونا لخليفة علوى لأن العلويين كانوا الصق ببيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأراد ان يتخذله جيشا اجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الامم التي ظن انه يستعبدها بسلطانه ويصطنعها باحسانه . فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك . وفى سعة احكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك . هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجمياً .

خليفة عباسي اراد ان يصنع لنفسه وخلفه وبئس ماصنع بأمته ودينه — اكثر من ذلك الجند الاجنبي واقام عليه الرؤساء منه فلم تكن إلا عشية او ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم وصارت الدولة فى قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام والقلب الذي هذبه الدين . بل جاؤا الى الاسلام بخشونة الجهل يحملون

ألوية الظلم . لبسوا الاسلام على أبدانهم . ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده فى خلوته ويصلى من الجماعات لتمكين سلطته . ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره . أي عدو لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرف الناس منزلتهم ويكشف لهم قبح سيرهم ؛ فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم . أما العلم فلم يحفلوا بأهله . وقبضوا عنه يد المعونة وحملوا كثيراً من أعوانهم أن يندرجوا فى سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ليعدوا من قبيله . ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه . ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين . زعموا الدين ناقصاً ليكملوه . أو مريضاً ليصلحوه . أو متداعيا ليدعموه . أو يكاد ان ينقض ليقيموه .

نظروا الى ما كانوا عليه من نخفخة الوثنية . وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية . فاستعاروا من ذلك للاسلام ماهو براء منه لكنهم نجحوا في اقناع العامة بأن في ذلك تعظيم شعائره . وتفخيم أوامره . والغوغاء عون الغاشم . وهم يد الظالم . فخلقوا لنا هذه الاحتفالات وتلك

الاجتماعات . وسنوا لنا من عبادة الاولياء والعلماء والمتشبهين بهم مافرق الجماعة . وأركس الناس في الضلالة وقرروا ان المتأخر . ليس له أن يقول بغير مايقول المتقدم . وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول . ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاخبار والآراء مايقنع العامة بأنه لا نظر لهم في الشؤون العامة . وأن كل ماهو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه . وأن مايظهر من فساد الاعمال واختلال الاحوال . ليس من صنع الحكام وانما هو تحقيق لما ورد في الاخبار من أحوال آخر الزمان : وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل . وأن الأسلم تفويض ذلك الى الله وما على المسلم الا أن يقتصر على خاصة نفسه . ووجدوا في ظواهر الالفاظ لبعض الأحاديث مايعينهم على ذلك وفي الموضوعات والضعاف ماشد أزرهم في بث هذه الاوهام . وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا

للعزائم وغلا للايدي عن العمل . والعامل الاقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة في الدين وموافقة الهوى . أمور اذا اجتمعت اهلكت فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ورسخ في نفوس الناس من العقائد مايضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال .

هذه السياسة سياسة الظلمة وأهل الاسرة هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لايعرفه وأسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات . وأخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات . فجل ماتراه الآن مما تسميه اسلاما فهو ليس باسلام وانما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الاقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذي ذكرته وعدوه دينا . نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه . فكل مايعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام وانما هو شيء آخر سموه اسلاما . والقران شاهد صادق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) يشهد بأنهم كاذبون . وانهم عنه لاهون . وعما جاء به

معرضون ، وسنوفى لك الكلام في مفاسد هذا الجمود وتثبت انه علة لا بد ان تزول

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين فى المحافظة عليه ، وولع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها وانما يحسن اجمال القول فيها. كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل فى سعة العلم ويسيح به في الارض ويصعد به الي اطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف به سرا من أسراره في خليقته ، أو يستنبط حكما من أحكام شريعته فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ماتشاء وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين . وقف العلم وسكنت ريحه . ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج

جناية الجمود على اللغة : أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية واساليبها وآدابها فان القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم اليها ــ أريد حاجتهم فى فهم كتابهم الى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير اليه هيئة تركيبها ، وكانوا يجدون انهم لن

يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربا بملكاتهم ، يساوون من كانوا عربا بسلائقهم ، فلما لم يبق للمتأخر إلا الأخذ بما قال المتقدم قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا الى دليله ولو نظروا في الدليل فرأوه غير دال له بل دالاً لخصمه بأن كان عرض له في فهمه مايعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم لخطأوا نظرهم وأعموا أبصارهم وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا الى غير ما ذهب اليه متقدمنا وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية • فأي حاجة له بعد ذلك الى اللغة العربية نفسها وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الاولون فى كلامهم•

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر فى كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الاول بل ولا بما كان يحف بالقول من أحوال الزمان فهولا ينظر الا للفظ وما يعطيه فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتي وصل حال الناس الى ما نراهم عليه اليوم • جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين في النحو وفنون البلاغة وان لم يصلوا منها الى غاية

في فهم ماوراءها فدَرَسَت علوم الاولين وبادت صناعاتهم . بل فقدت كتب السلف الاولين رضي الله عنهم . وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الام للشافعي رحمه الله تعالى أو بعض كتب الامهات في فقه الحنفية كطالب المصحف في بيت الزنديق . تجد جزءا من الكتاب في قطر وجزءه الآخر في قطر آخر فاذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ماعرض عليها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم ان أبواب فضل الله قد أغلقت في وجوه المتأخرين، ليرفع بذلك منازل المتقدمين، وعدم الاعتبار بما ورد في الاخبار من أن المبلغ ربما كان اوعي من السامع [1] وان هذه الامة كالمطر لا يدري أوله خير أو آخره [2]

---

(١) المنار . يشير الي حديث ابن مسعود عند الترمذي وابن ماجه وهو . سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول (نضر الله امرءاً سمع مني شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعي له من سامع) ورواه غيرهما عن غيره (٢) يشير الى حديث أنس عند الترمذي وهو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . (مثل أمتي مثل المطر لايدرى أوله خير أم آخره) ورواه غيره

وقلة الالتفات الي ان ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ولا حول ولا قوة إلا بالله . لا ريب ان القارئ يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة . يكفيه من ذلك انه اذا تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم مايقول . وأى ضرر أعظم من عجز القائل عن ان يصل بمعناه الى العقول .

جناية الجمود على النظام والاجتماع: وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الامة وإيقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع في الدين . كان اختلاف السلف في الفتيا يرجع الى اختلاف أفهام الافراد وكلٌّ يرجع الى أصل واحد لا يختلفون فيه وهو كتاب الله وماصح من السنة فلا مذهب ولا شيعة ولا عصبية تقاوم عصبية . ولو عرف بعضهم صحة مايقول الآخر لاسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم . ثم جاء أنصار الجمود فقالوا يولد مولود في بيت رجل من مذهب امام فلا يجوز له ان ينتقل من مذهب أبيه الى مذهب إمام آخر . واذا سألتهم قالوا : (وكلهم من رسول الله ملتمس) لكنه قول باللسان . لا أصل له في الجنان . ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها

وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة لكنا اليوم في شأن غير مانحن فيه نجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض مالا يسمع به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون اليه . يضلل بعضهم بعضاً ويرمي بعضهم بعضا بالبعد عن الدين وماالمطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن ولكنه الجمود . قديؤدي إلى الجحود .

كان الاختلاف في العقائد على نحو الاختلاف في الفتيا تخالف أشخاص في النظر والرأي . وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه . مسجدهم واحد وإمامهم واحد وخطيبهم واحد فلما جاء دور الجمود ـ دور السياسة ـ أخذ المتخالفون في التقطع ، أخذت الصلاة تتقطع ، وامتازت فرق ، وتألفت شيع ، كل ذلك على خلاف مايدعو اليه الدين وقدبذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تمييزاً حقيقيا فما استطاعوا وانما هو تمييز وهميّ ، وخلف في أكثر المسائل لفظي . وإنما هي الشهوات ، وضروب السياسات ، اشعلت نيران الحرب بين المنتسبين الى تلك الشيع حتى آل الأمر الى هذه الفرقة التى يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها .

قال قائل من عدة سنين : إنه ينبغي أن يعين القضاة في مصر من أهل المذاهب الاربعة لان أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها. وقال : ان الضرورة قاضية بأن يؤخذ في الاحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعي تيسيراً على الناس ودفعا للضرر والفساد . فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئا ليس من الدين ، مع أنه لم يطلب الا الدين ، ولم يأت الا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه العمل في أقطار العالم الى ماقبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء (وكلهم من رسول الله ملتمس) ؟ لكن هو جمود المتأخر على رأي من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع الى ما وراءه . أو هي السياسة تحلّ ما تشاء وتحرم ماتشاء ، وتصحح ماتشاء وتبطل ماتشاء . والناس منقادون اليها بازمة القوة أو الاهواء .

جناية الجمود على الشريعة وأهلها : هذا الجمود في أحكام الشريعة جرّ الى عصر حمل الناس على اهمالها . كانت الشريعة الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما سمحة تسع العالم بأسره وهي

اليوم تضيق عن أهلها حتى يضطروا الى أن يتناولوا غيرها وان يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى اليها ٠ وأصبح الاتقياء من حملتها يتخاصمون الى سواها ٠ صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول الى عملها فلا ترى العارف بها من الناس إلا قليلا لا يعدّ شيئا اذا نسب الى من لا يعرفها وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ؟ فوقع أغلب العامة في مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم لانهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم على مقتضي نصوصها ٠ وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف ٠ سألت يوما أحد المدرسين في بعض المذاهب : هل تبيع وتشترى وتصرف النقود على مقتضى ما تجد في كتب مذهبك ؟ فأجاب أن تلك الاحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وانما يفعل ما يفعل الناس ٠ هكذا فعل الجمود بأهله ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة تحي بها الناس لفعلوا ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء

تعلم ماوصل اليه الناس من فساد الاخلاق والانحراف عن حدود الشريعة ٠ لو سألت عن سببه في القرى وصغار المدن

لوجدته أحد أمرين اما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدنية في جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها الى بعض في معرفة الحلال والحرام وليس المسؤل بأعلم من السائل وكلهم جاهلون . وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة فهو إذا سئل يقرأ كتابا أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم افهامها . وذلك للحرج الذى وضع فيه نفسه فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فاذا قلت للعارف : تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك واعل بنفسك الى ان تفهم الغرض من قول امامك فتجد لاصله انطباقا على هذه الحادثة مثلا وان لم يأت ذكرها بنفسها في قوله أو قول من جاء بعده من اتباعه : قال : سبحان الله ! هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ يريد ان لا يأتي شيئاً الا ما اتى به شيخه الذي أخذ عنه يداً بيد ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه في بعض رأيه ثم اذا حاججته في ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقاً

وأنك تدعوه الى الخروج من دينه ولا يدري المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه وأنه يتهيأ للخروج منه نعوذ بالله تعالى

كان كلام بيني وبين أحد المدرسين في أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الاخلاق وصالح الاعمال خصوصاً عند القاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد فقال لى : انه لافائدة في ذلك قطعاً وهو تعب في غير طائل . فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهى المنهى : فقال : اذا تحققت استحالة المنفعة كان الامر والنهي لغوا . فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم . ولم ينظر فى الوسيلة لاقتلاع هذا الفساد مع ان الدين يدعوه الى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لاسبيل الي اصلاحه . هذا كله لأنه لم ير نفسه أهلا لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه أولم يرشده اليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئا من الاوامر الالهية التى وردت فى النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر وأن اليأس من روح الله إنما يكون من

القوم الكافرين أو الضالين

لا بل اذا قلت له ان هـذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منـه أو ان هـذا الكتاب الذي تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه وغيره أفضل منه: كاد يظن ان قولك هـذا مخالف للدين ورأي المدول عما تعوده نوعا من الاخلال بالدين . وقد يقيم عليك حربا يعتقد نفسه فيها مجاهدا في سبيل الله اذا قلت له : ان دروس السلف كانت تقريرا للمسائل واملاء للحقائق على الطلاب ولم يكن لاحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلامذته ولم يكن بايدى الطلبة الا الاقلام والقراطيس يكتبون مايسمعونه من أفواه أساتذتهم . وقد يعترف لك بصحة ماتقول . ولكنه يستمر فى عمله اعتماداً على أنه وجد الناس هكذا يعملون . فهل يخطر ببال عاقل ان هذا الجمود من الدين ؟ وهل يرتاب من له أدني ادراك فى سوء عقباه على الدين وأهل الدين !

جناية الجمود على العقيدة : ذلك جمودهم فى العمل وأشد ضرراً منه الجمود فى العقيدة . نسوا ما جاء في الكتاب وأيدته السنة من ان الايمان يعتمد اليقين ولا يجوز الاخذ فيه بالظن

وان العقل هو ينبوع اليقين في الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة وان النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفروض العبادات وهيآتها وان العقل ان لم يستقل وحده في ادراك مالا بد فيه من النقل فهو مستقل لامحالة في الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز ان يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول . نسوا ذلك كله وقالوا : لا بد من اتباع مذهب خاص في العقيدة وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا كما قلنا . ولم يكفهم الالزام باتباع مذهب خاص في نفس المعتقد بل ذهب بعضهم الى انه لابد من الاخذ بدلائل خاصة للوصول الى ذلك المعتقد فيكون التقليد في الدليل كالتقليد في المدلول . وكأنهم لذلك جعلوا النقل عماداً لكل اعتقاد وياليته النقل عن المعصوم بل النقل ولو عن غير المعروف . فتقررت لديهم قاعدة : ان عقيدة كذا صحيحة لان كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك . ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة . وقد سرى ذلك من قراء المقلدين الى اميهم فتراهم يعتقدون بكل مايقال وينقل عن معروف

الاسم وان لم يكن في حق الامر من أهل العلم وتتناقض
عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم

انجر التساهل في الاعتماد على النقل الى الخروج عما
اختطه لنا السلف رضي الله عنهم فقد كانوا ينقبون عن صفات
من ينقلون عنه ويمتحنون قوله حتى يكونوا على شبه اليقين من
أنه موضع الثقة ، ولكن جمود المتأخر على مايصل اليه من
المتقدم صير النقل فوضى فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه
وظن أنه أهل للاخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب حتى شاع بين
الناس من الاقوال وموضوعات الاحاديث ما ترتفع الاصوات
بالشكاية منه من حين الى حين ، وكل ما تراه من البدع
المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذي نشأ من رداءة التقليد
والجمود عند حد ما قال الاول بدون بحث في دليله ولا تحقيق
في معرفة حاله واهمال العقل في العقائد على خلاف مايدعو اليه
الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك عقائد
يحتاج صاحب الغيرة على الدين في اقتلاعها من أنفسهم الى عناء
طويل وجهاد شديد وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال
بعض من تقدم من يعرف ومن لا يعرف وما أكثر عدد من

ينصر أعداؤه اليوم وما أقلهم غدا ان شاء الله

سأل سائل من الاستاذ شيخ الجامع الازهر عن حكم عمل من الاعمال الجارية فى المساجد يوم الجمعة ـ ومنزلة الشيخ من الرئاسة في أهل العلم بالدين منزلته ـ فافتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها أتظن ان المستفتى أمكنه العمل بمقتضى الفتيا كلا . حدث قيل وقال ، وكثرة تسآل ، ودخلت السياسة ثم قيل ان الزمان ناصر الحقيقة وقد وجدنا الامر كذلك من قبلنا وسكت السائل وماذا يصنع المجيب . نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجي فيهم تقويم ما اعوج منها ووكلها الى اناث منها لا علم لهم بالدين ولا بالادب وقد غرسوا في أذهان الدهماء شر الغرس ولا تجنى الامم منه الا أخبث الثمر . فلو قام العالم بالدين وأراد ان يبين حكم الله المصرح به في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح في وجهه (ماسمعنا بهذا فى آبائنا الاولين) ويريد من آبائه الاولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى

صار ارشاد العامة اليوم من أصعب الامور وأشقها على طالبه

ماذا يمكن ان أقول أصبح الرجل يرتكب في وسائل العبادة أقبح المنكرات في الدين واذادعي الى ترك المنكر نفر وزمجر ، وأبى واستكبر ، انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم في الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم النساء والاطفال وهم يظنون انهم يتقربون الى الله بما يفعلون

هذا هو شأن العامة يرون ماليس بدين دينا ويصعب على حفاظ الدين إرشادهم بفضل جمودهم على ماورثوا من ملقنيهم بدون تعقل . فهذا معظم الامة تراه قدتعاصى من أيدي منذريه ولو شاؤا لأقبل كل منهم على صاحبه وهوأيسر شئ على حملة الشريعة وما هو الا ان يرجعوا الى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياطته ،

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم ان الجمود قد أحدث لنا فريقا آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة إما في مدارس الحكومات الاسلامية وإما في المدارس الاجنبية داخل بلادهم أوخارجا

عنها . لا أتكلم عن هذا الفريق في بلاد القوم أو القوقاس أو سمرقند وبخارى أو الهند فاني لا أعرف كثيرا من احوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيرا وأرجو ان يكون منهم لقومهم ماينتظره الاسلام من العارفين به فقد رأيت افرادا قليلين من هؤلاء تعلموا في البلاد الأوربية ودرسوا العلوم فيها درسا دقيقا وهم أشد تمسكا بلب الدين الاسلامي وروحه من كثير ممن يدعي الورع والتقوى ولا يسمحون لانفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التي أورثها دينهم قومهم فنعم المتعلمون هؤلاء أكثر الله منهم

وانما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى مصر وسوريا وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الاسلام وسعة حلمه للعلم أباحت للمسلمين ان يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم في المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين بل فى مدارس لم تبن الا لترويج دين غير الدين الاسلامي . وأباحت لغير آباء هؤلاء التلامذة ان يسكتوا وان لاينكروا عليهم عملهم مادامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة

جمود تلامذة المدارس الاجنبية : هـؤلاء التلامـذة ان كانوا في مدارس أجنبية لاأثر لتعليم الدين الاسلامي فيها بل ربما يتعلم فيها دين آخر فقـد يسرى الى عقائدهم شيء من الضعف وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانها عقائدأخرى تناقضها كما شوهـد ذلك مرارا • ولو كان آباهم على علم بطرق الاستدلال الاقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل أو الزوال • وكيف يكون لاولئـك الآباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لايصل الى فهمها من ينقطع لتعلمها فضلا عن أولئك المساكين • بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم ولـكن الجمود صير كل شيء صعبا وكل أمر غير مستطاع

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون في مدارس أجنبية يخرجهـم من دينهـم من حيث لايشعرون • وياليتهم يستبدلون بالدين رادعا آخر من الأدب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لايعلمون طبائـع هذه الأمم أو كما يروّجه بعض من لايريد الخير بها • ولكنه

ترك أفئدتهم هواءً خالية من كل زجر أو دافع اللهم الا
زاجرا عن خير أو دافعاً الى شر فاتخذوا الههم هواهم وإمامهم
شهوتهم فهلكوا وأهلكوا . ومن هؤلاء ورثة الاغنياء الذين
تصيح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم . فالجهل خير مما
يتعلم هؤلاء بدون ريبة وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل
هذا الضرب من التعليم والتعلم .

جمود تلامذة المدارس الرسمية والاهلية

أما المتعلمون في مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم
الديني فيها شئ من البقية فهؤلاء ينشأون على شئ من
المعارف في الفنون المختلفة وتقرر لهم حقائق في الكون
السماوي أو الارضي أو في الاجتماع الانساني ومن عرف شيئاً
انطلق لسانه بالخوض فيه وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس
أهل الدين وهو جامد على ألفاظ سمعها فلو سمع غيرها أنكره
وظنه مخالفا للعقيده الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ويرميه
بالمروق من الدين . هذا والمتعلم لا يشك في قوة دليله وجهله
بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه فينفر من دينه نفرته من
الجهل . ولو قال له قائل: ارجع الى كتب الدين تجد فيها ما يسرك

وينصرك على نفسك وخصمك . حار لا يدري الى أي كتاب يرجع ولم يسهل عليه فهم تلك المبارات التى ورثها القوم على مافيها من تشتيت وتعقيد وأبقوها كما ورثوها . فيعود الى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه

لهذا يعتقد اكثر هؤلاء ان الدين شيء غير مفهوم بل قد يعده بعضهم خرافة (نعوذ بالله) فيأخذون عنه جانباً ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ويلتمسون لهم آدابا في غيره وقلما يجدونها فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم فلا يطلبون الا ماتطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه ويسلكون الى ذلك أي طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة (مادام الشرف محفوظا) فاذا وجد بينهم من يدي الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك فانما ينثر الالفاظ نثراً لا يرجع فيها الى أصل ثابت ولا الى علم صحيح ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذي يؤدي الى المفسدة وهو يشعر أو لا يشعر على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه أو درس عقيدة من عقائده فشأنهم كلام في كلام ولبئس مايصنعون . ولولا هذا الجمود لوجدوا

في كتب دينهم وفي أقوال حملته ماتبتهج به قلوبهم ، وتطمئن اليه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم ماداموا بالدين وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة يرجع اليها في سير الامة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية .

﴿ الجمود علة تزول ﴾

(المقال الخامس لذلك الامام الحكيم . وفيه بيان علاج الداء)

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج الى كتاب طويل فنكتفي بما أوجزناه في الصفحات السابقه . ولكن يبقى الكلام في أنه عارض يمكن زواله ان شاء الله تعالى .

قد عرفت من طبيعة الدين الاسلامي بعد عرضها عليك فيما سبق أنها تسمو عن أن ينسب اليها هذا المرض الخبيث ـ مرض الجمود على الموجود ـ وكم في الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ولا حاجة الى إعادة ذلك . ثم اننا أشرنا أيضاً الى بعض الاسباب التي جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام وان محدثها اما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو

لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه . واما محب جاهل يظن خيراً ويعمل شراً وهذا الثاني كان أشد نكاية ، وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه الملة ويرجع الاسلام الى سعته الاولى وكرمه الفياض وينهض بأهله الى ماذخر لهم فيه ؟؟

جاء في الكتاب المبين (إنا نحنُ نزّلنا الذّكرَ وَإنا لهُ لحافظونَ) ذلك الذكر هو الذكر الحكيم هو القرآن الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . هو كما قال (كتابٌ فصلتْ آياتهُ لقوم يعلمونَ) وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده لم تطل اليه يد عدو مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقي كما نزل ولا يضره عمل الفريقين في تفسيره وتأويله فذلك مما لا يلتصق به فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهراً نقياً بريئاً من الاختلاف والاضطراب . وهو امام المتقين ، ومستودع الدين ، واليه المرجع اذا اشتد الأمر وعظم الخطب وسئمت النفوس من التخبط في الضلالات . ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التي أقاموها دونه ولا بد أن تتمزق كلها بأيدي أنصاره فيتبالج ضياؤه لأعين أوليائه ان شاء الله تعالى

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه فى حنادس الظلم لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ويحمدون سراهم . بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع ، وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ؟ وطمست بصائرهم ، وفسدت عقولهم ، بما حشوها من الاباطيل وبما عطلوها عن النظر في الدليل ، هؤلاء في عمى عن نوره وقلوبهم في أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر . يصيحون بأنهم عمي صم فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون . هذا حال الجمهور الاعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه في حربه بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه فى شيء كما قدمنا

هؤلاء لابد أن يصيبهم ما أصاب الامم قبلهم فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع وضيقوا على أنفسهم بدخولهم فى حجر الضب الذى دخلوه [1] ومن اتبع سنن قوم استحق

---

(١) المنار : في الكلام اشارة الى حيث « لتتبعن سنن من قبلكم

الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم فلن يخلص مما قضى الله في عذابهم . فقد قص عليهم سير الاولين وبين لهم ما نزل بهم عند ما انحرفوا عن سننه وحادوا عن شرعه ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا ، ـ أحل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم ـ فهل ينتظر المتبعون سننهم ، السائرون على أثرهم ، أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسابقيهم وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الاسلام ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا (وقد بدأوا يفيقون من سكراتهم) ويفزعوا الى طلب النجاة ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم في انتظارهم يعد لهم وسائل الخلاص ويؤيدهم فى سبيله بروح القدس ويسير بهم الى منابع العلم فيغترفون منها ما يشاؤون فيعرفون أنفسهم ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة فيأخذ بعضهم بيد بعض ويسيرون إلى المجد غير ناكلين

شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)
الحديث رواه الشيخان وغيرهما

ولا مخذولين. ولهذا أقول : الاسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبدا ولكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله. وهذا الجمود سيزول وأقوى دليل لك على زواله بقاء الكتاب شاهداً عليه يسوء حاله ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه، ويدعون اليه ويؤيدونه. والحوادث تساعدهم وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم

هذا الكتاب المجيد الذي كان يتبعه العلم حيثما سار شرقا وغربا لابد ان يعود نوره الى الظهور ويمزق حجب هذه الضلالات ويرجع الى موطنه الاول في قلوب المسلمين ويأوى اليها ـ العلم يتبعه وهو خليله الذي لا يأنس الا اليه ،ولا يعتمد الاعليه ،

يقول أولئك الجامدون الخامدون كما يقول بعض أعداء القرآن : ان الزمان قد أقبل على آخره ، وان الساعة أوشكت ان تقوم ، وان ماوقع فيه الناس من الفساد ، وما مني به الدين من الكساد . وما عرض عليه من العلل ، وما نراه فيه من الخلل ، انما هو أعراض الشيخوخة والهرم، فلا فائدة في السعى ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة الا الى العدم ، ولا يصح ان يمتد بصرنا

الا الى العدم ، ولا أن ننتظر من غاية لاعمالنا سوى العدم ، (نعوذ بالله) هؤلاء حفدة الجهل وأعوان اليأس يعرفون بما لا يعرفون . ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا انه كاد ينقطع عند نهايته ؟ ان الذي مضي بيننا وبين مبدإ الاسلام ألف وثلاثمائة وعشرون عاما وانما هي يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من ايام الله تعالي . وأن آيات الله في الكون ـ وان كانت تدل على أن مامضي على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير ، ـ تشهد بان مابقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير ، (فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً) . ان مابيننا وبين مبدإ الاسلام لايزيد من عمر ستة وعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة . فهل يعد مثل ذلك دهراً طويلا بالنسبة الى دين عام كدين الاسلام ؟ ان زمنا كهذا لايكفي ـ وقد تبين انه لم يكف ـ لاهتداء الناس كافة بهديه . ولم تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم ؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله فسار في سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواما ثم انحرف به أهله عن سبيله وصاروا به الى مايرون ونرى . ولن ينقضي

العالم حتى يتم ذلك الوعد ويأخذ الدين بيد العلم ويتعاونا معا على تقويم العقل والوجدان فيدرك العقل مبلغ قوته، ويدرك حدود سلطته، فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين، حتى اذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعاً، وقفل راجعاً، وأخذ إخذ الراسخين في العلم الذين قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فيما روى عنه: « هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماء، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا» واعتبر بعد ذلك بقوله: فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين، هو القادر الذي اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع [1] قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطوات الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولهت [2] القلوب اليه لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته

(١) المنقطع ما ينقطع عنده الشئ وهو آخره (٢) تولهت اشتد عشقها

ردعها وهى تجوب مهاوى سدف[1] الغيوب متخلصة اليه سبحانه ، فرجعت اذ جبهت[2] معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنهه ، ولا تخطر ببال أولي الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته »

هنالك يلتقى (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل في سيره داخل حدود مملكته متى كان الوجدان سليما ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحاً ، إياك أن تعتقد مايعتقده بعض السذج من أن فرقا بين العقل والوجدان (القلب) في الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة . فانما يقع التخالف بينهما عرضاً عند عروض العلل والامراض الروحية على النفوس . وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطنى (الوجدان أو القلب) من مبادى البرهان العقلى كوجدانك انك موجود ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك

منحنا العقل للنظر في الغايات ، والاسباب والمسببات ، والفرق بين البسائط والمركبات، والوجدان لادراك مايحدث

---

(١) السدف جمع سدفة كظلمة لفظاً ومعنى (٢) جبه ضربت جبهته ورد

في النفس والذات من لذائذ وآلام . وهلع واطمئنان . وشماس واذعان . ونحو ذلك مما يذوقه الانسان . ولا يحصيه البيان . فهما عينان للنفس تنظر بهما - عين تقع على القريب . وأخرى تمد الى البعيد . وهي في حاجة الى كل منهما ولا تنتفع باحداهما حتي يتم لها الانتفاع بالاخرى فالعلم الصحيح مقوم الوجدان . والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . والدين الكامل علم وذوق . عقل وقلب . برهان واذعان . فكر ووجدان . فإذا اقتصر دين على أحد الامرين فقد سقطت إحدى قائمتيه وهيهات أن يقوم على الاخرى . ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الوحد إنسانيين . والوجود الفرد وجودين

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنك تعمله طوعا لوجدانك . وربما أيقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك . فتقول : إن هذا يدل على تخالف العقل والوجدان . ولكني أقول : إن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره . عليك أن ترجع الى نفسك فتتحقق من أحد الامرين - إما ان يقينك ليس بيقين وانه صورة عرضت عليك من قول غيرك فأنت تظنها علما وما هي به . وأما ان وجدانك

وهم تمكن فيك . وعادة رسخت في مكان القوة منك .
وليس بالوجدان الصحيح وانما هو عادة ورثتها عمن حولك
وظننتها شعوراً منبعه العزيزة وما هي منه في شيء .

(نتيجة) لا بد أن ينتهي أمر العالم الى تآخي العلم والدين على سنة
القرآن والذكر الحكيم؟ ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذي صح
معناه[1] « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله » وعند
ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون[2] وتبعهم

(١) المنار — قال العراقي رواه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه
باسناد ضعيف ورواه الإصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر
أصح منه . ورواه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب من حديث
ابن عمر وقال: هذا إسناد فيه نظر . قلت فيه الوازع بن نافع متروك . وقال
الزبيدي في شرح الاحياء قلت حديث ابن عمر لفظه « تفكروا في آلاء
الله ولا تفكروا في الله » هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر وأبو
الشيخ في العظمة والطبراني في الاوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي
وضعفه والاصبهاني وأبو نصر في الابانة وقال غريب . ورواه أبو الشيخ
من حديث ابن عباس « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فانكم
لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة
« تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله » الخ وتعدد هذه الروايات
واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوي في المقاصد
(٢) الكافر من يرى الدليل فيصدعنه ولا ينظر فيه أو ينظر فيعرف

الجامدون القانطون . وليس بينك وبين ما أعدك به الا الزمان الذي لا بد منه في تنبيه الغافل . وتعليم الجاهل . وتوضيح المنهج . وتقويم الأعوج . وهو ما تقتضيه السنة الالهية فى التدريج « سنةَ اللهِ في الذينَ خلوْا من قبلُ ولنْ تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلا » . « انهم يرَونه بعيداً ونراه قريباً » . « ان تنصروا الله ينصرْكم ويثبت أقدامكم » وهو خير الناصرين .

﴿ حرية العلم في أوربا الآن . ونسبتها إلى الماضي والحاضر فى الاسلام ﴾
(وهو المقال السادس لذلك الامام الحكيم)

لم يبق علينا من الكلام الا مايتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة [1] وهو (أن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوربا وعدم تمكنها من التغلب على الاضطهاد الاسلامي دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا مع الفلسفة)

ليس من السهل عليَّ أن أعتقد أن أديبا كصاحب

الحق ثم يماري فيه وينكره عناداً . اه من هامش الاصل (١) يذكر القراء أن كلام الجامعة فى الطعن بالاسلام كان مبنياً على أربعة أمور تقدم الرد على ثلاثة منها وفى هذا المقال الرد على الرابع

الجامعة يقول هـذا القول وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا فى هـذه المسألة وهى من أهم المسائل التاريخية . وإنما هي عين الرضي تناولت من حاضر الحال ومما انتهى اليه سير التاريخ ماتناولت ثم أملت على قلبه ماجرى به قلمه

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحا . وهل يسمي العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما . أم يسمي غل الأيدى عن الشر بوسائل القهر كرما . ؟ هل تعد مساكنة جناب البابا الملك إيطاليا فى مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين كرسي المملكة الايطالية وكرسى المملكة البابا وية فى عاصمة واحدة تسامحا من قداسة البابا مع الملك ؟ أليس الاجدر بالمنصف أن يسمى ذلك تسامحا من الملك مع البابا لانه صاحب القوة والجيش والسلطنة ويمكنه أن يسلب تلك الثمالة التى بقيت له من السلطة الملكية ؟ كما أن الأليق به أن يسمى تلك الحالة التي عليها أهل أوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين تساهلا من العلم مع الدين لا تسامحا من الدين مع العلم بعد ما كان بينهما من الحوادث ما كان وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش

السلطان في جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعاً له في أغلبها

(اقتباس مدينة أوربا من الاسلام ، وأسباب ظهورها التام)

السبب الاول الجمعيات : كان جلاد بين العلم والدين في أوربا وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب منها ما اتخذ السر حجابا له حتى يقوى ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة . وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الاندلس وتبع أشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربي من الجانب الشرقي كما ذكرنا . وقد وجد هذان النوران استعدادا من النفوس للاستضاءة بهما في السبيل التي تؤدي بهما الى المدينة التي كانا يحملانها . هذا الاستعداد كسبته الانفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين في استعمال سلطانهم واشتدادهم في استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال فأخذ الشعور الانساني يتلمس السبيل الى الخلاص وإذلاج له هذان النوران اتخذهما له هداية واستقبلهما بوجه وكان بعد ذلك ما كان من تأثر الدين لأهل العلم واحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الاوطان . ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولاهل

الافكار المستقلة في أدنى الاشياء وأعلاها حتى إنه عندما شرع ملوك فرنسا في فرش شوارع باريس بالبلاط على الاسلوب الذى وجدوه في مدينة قرطبة وصدر الامر بمنع تربية الخنازير في تلك الشوارع أغضب ذلك قسوس القديس أنطوان ونادوا بان خنازير القديس لابد ان تمر في الشوارع على حريتها الاولى . وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الامر بأن توضع في أعناقها أجراس وقالوا ان الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عند ما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس في عنقه

لقائل أن يقول : ان القسوس في ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الاجراس في أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحا عظيما مع العلم (أو الصناعة) ويسهل على ان أوافقه على ان مثل هذا الضرب من التسامح في أجراس الخنازير كان يظهر من حين الى حين الا أنه فيما أظن لا يكفي في تشييد هذه المدنية التي يفتخر بها الاوربيون ونحن لا نبخسها قدرها كذلك

السبب الثاني الضغط الديني: شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة في قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة فعظم أمرهم

واكتشفوا كثيراً من الحقائق التى نفعت العامة وتنبهت العقول للاخذ بما يهتدون اليه وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالا الى ان ظهر دعاة الاصلاح الديني (البروتستانت) فانضم دعاة العلم اليهم ظنا منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين فى سبيل العلم . وكان منهم ايراسم الشهير فلما انتصر طلاب الاصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الافكار التى تخالف ظاهر مايعتقدون كما تقدم فانفصل ايراسم ومن معه من حماية الحرية واستقلال الارادة الشخصية وترك المصلحين يتفرقون شيعا ويقتل بعضهم بعضا وقال : ما كنت أظن ان دعاة الاصلاح يكونون كذلك أعداء العلم

هذه الطوائف التى تفرقت عقائدها فى الاصلاح لم تنتظر الا ان تأمن عدوها العام وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض واشتعلت نيران الحروب بينهم . قال أحد أفاضل مؤرخيهم (وكلما ارتفعت طائفة منهم الي عرش القوة لوثت يديها بالجرائم في العمل لافناء البقية حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ووجدت من توالى حوادث الانتقام وظهور مضاره كل طائفة ان الافضل لكل

طائفة ان تمنح الاخرى من الحرية مالا تستغنى عنه واحدة منهما والعلم كان يعمل عمله فى كشف الحقائق وترقية الآداب وكان من أقوى المنبهات الى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الاشخاص من أي طائفة كانت ٠ من هذا نشأ ذلك الاصل العظيم أصل التسامح والرضى بمجاورة المخالف فى الرأى نشأ من القهر والقسوة التى كانت كل طائفة تعامل بها الاخرى) انتهى كلام المؤرخ بالمعني

السبب الثالث الثورة : ولا حاجة بى الى ذكر ماجاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم ٠ وإنما أنبه القارئ الي الاعتبار بما تقدم من القول وبما يمكنه ان يقف عليه فى كتب القوم ٠ ليعلم ان الدين المسيحى في أوربا لم يحتمل العلم فضلا وكرما ٠ وانما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعا ٠ ولو شاء ان لا يحتمل لم يستطع الى ذلك سبيلا ٠

السبب الرابع ترك المسيحية: رؤساء الدين المسيحى رجال ذوو عزيمة وإقدام وغيرة على دينهم قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الاديان ٠ وهم من غلوهم في الدين واشتدادهم فى استعمال

سلطانهم على النفوس كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم . وهم أشد الناس حرصا على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ولم يزدهم العلم الجديد الا وسائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه ولم تفتر لهم همة في نشره وتزيينه للقلوب . ومع ذلك كله نرى ان رجال العلم وحماة المدنية يتسلون منه . والعامة من الشعوب في تخاذل عنه . والامة الفرنسية التي كانت تدعى بنت الكنيسة أصبحت من أشد الناس عليه ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين في تعاليمهم واجتماعهم كل ذلك ومدارس اللاهوت لاتزال عامرة وطلاب اللاهوت يعدون بالألوف كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين المسيحي في أقطار الأرض . قال أحد رؤساء البروتستانت فى خطبة من خطبه التي ألقاها فى بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ بعد كلام له فى ان المسيحية رومانية أو بروتستانية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية مانصه مترجما : (اذا كان الدين المسيحي ليس شيئاً سوى الكثلكة المحتاجة الى الاصلاح (المذهب الروماني) أو الكثلكة التي دخلها الاصلاح بالفعل (المذهب البروتستنتي) فالقرن

الموفى للعشرين (القرن الحاضر) لايكون مسيحيا أبدا).

وقد جاء في كلام هذا الخطيب مايصرّح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها فان وفق للنجاح في سعيه زال الخلاف ـ ان شاء الله — بين الدين والعلم بل بين المسيحية والاسلام

عود الى سماحة الاسلام : آخذ بيد القارئ الآن . وأرجع به الى مامضى من الزمان . وأقف به وقفة بين يدى خلفاء بني أمية والائمة من بنى العباس ووزرائهم . والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم . والادباء والمؤرخين والاطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون . وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم . وكلٌّ مقبل على عمله . فاذافرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده في يده . يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيبَ والمجتهد الرياضي والحكيم . وكلٌّ يرى في صاحبه عونا على مايشتغل هو به . وهكذا أدخل به بيتا من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون والامام البخارى حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان الخارجي يأخذ عنه الحديث وعمرو بن عبيد

رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل :(لقد سألت عن رجل كأن الملائكة ادبته . وكأن الانبياء ربته . إن قام بأمر قعد به . وان قعد بأمر قام به . وان أمر بشيء كان الزم الناس له . وان نهى عن شيء كان اترك الناس له . مارأيت ظاهراً أشبه بباطن منه . ولا باطنا أشبه بظاهر منه .) بل أرفع بصرى فأجد الامام أبا حنيفة أمام الإمام زيد بن على (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ولا يجد أحدهم من الآخر الا ما يجد صاحب الرأى فى حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً فى بيان المصلحة وهما من أهل بيت واحد أمر به بين تلك الصفوف التى كانت تختلف وجهتها فى الطلب وغايتها واحدة وهي العلم . وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد في بعض الاحاديث[1]

---

(١) . المنار رواه ابوا الشيخ ابن حبان في العظمة عن ابي هريرة بسند ضعيف . ورواه عن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات . ولكن له روايات اخرى منها رواية الديلمى في مسند الفردوس عن أنس بلفظ (ثمانين سنة) وفي رواية موقوفة على ابن عباس (خير من قيام ليلة ولشهرة هذا المعني قال الغزالى وردت السنة بكذا

الخلفاء أئمة في الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمين والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين فى قوته والعقيدة في أوج سلطانها وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون في اكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر لا فرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر فهنالك يشير القارئ المنصف الى أولئك المسلمين ، وأنصار ذلك الدين ، ويقول : ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم في حقيقته ، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم ، ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية . عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية في النظر . ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون)

يرى القارئ انه لم يكن جلاد بين العلم والدين . وانما كان بين أهل العلم أو بين أهل الدين شيء من التخالف فى الآراء شأن الاحرار في الافكار الذين أطلقوا من غل التقييد وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجري فيما بينهم اللمز والتنابز بالالقاب فلا يقول أحد منهم لآخر انه زنديق أو كافر أو مبتدع

أو مايشبه ذلك • ولا تتناول أحدا منهم يد بأذى الا اذا خرج
عن نظام الجماعة وطلب الإخلال بأمن العامة فكان كالعضو
المجذم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله

﴿ ملازمة العلم للدين • وعدوى التعصب في المسلمين ﴾

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ، ورُمِيَ زيد بانه
مبتدع وعمرو بأنه زنديق ، ؟ أشرنا فيما سبق في مبدإ هذا
المرض ونقول الآن ان ذلك بدأ فيهم عند مابدأ الضعف فى
الدين يظهر بينهم وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله (تلك
الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين فى الشرق وفى الغرب لخفض
سلطانه • وتوهين أركانه) وتصدر للقول فى الدين برأيه من لم
تمتزج روحه بروح الدين واخذ المسلمون يظنون ان من البدع
في الدين مايحسن احداثه لتعظيم شأنه تقليـدا لمن كان بين
أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها • وأنشأوا ينسون ماضي
الدين ومقالات سلفهم فيه ويكتفون برأي من يرونه من
المتصدرين المتعالمين . وتولى شؤون المسلمين جهالهم . وقام بارشادهم
فى الاغلب ضلالهم فى أثناء ذلك حدث الغلو في الدين واستعرت
نيران المداوات بين النظار فيه وسهل على كل منهم لجهله بدينه

ان يرمي الآخر بالمروق منه لأدنى سبب • وكلما ازدادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلوا فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهي لوازم الدين الاسلامي) في جملة ما كرهوه • وانقلب عندهم ما كان واجبا من الدين محظورا فيه

لا أكاد اخطيء القاريء اذا زعم ان المسلم إنما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ماعلمه جيرانه اذا كانوا يقولون : هرتقة وتهرتق وهوهرتوقي : أو مايماثل ذلك • أو زعم ان قد فشت في المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوي من أهل الملل المتشددة وان الذى سهل سريان العدوي بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الديني عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم

ان المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم • أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم • هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو مايقرب من ذلك؟ لا بل عدا بهم الجهل على

صحيفة

١٦٨ الاصلاح والمصلحون
١٧٠ الفرق بين التعصبين
١٧٢ رأي هانوتو الاخير في معاملة المسلمين
١٧٤ سياسة الانكليز في التسامح
١٧٥ خاتمة المقال

